العدد الرابع — السنة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربي

سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع النيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

الاشتراكات
قرش
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢ — فبراير سنة ١٩٥٣



لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

لاينبغى للمسلم أن يقف عند العبادات ولايتجاوزها ، فمع أنها من الأهمية بالدرجة العظمى إلا أنها ليست كل شىء ؛ بل أصبح العابد الذى يقتصر على العبادة ويظن أن الله لم يكلفه غيرها أقرب إلى الإضرار بالدين بما يكون من سوء فعله فى فتنة الناس عنه . فالتاجر الذى لا يكاد يفرغ من غش الناس حتى يتجه إلى المسجد لأداء الفريضة ، والموظف الذى يشعر بالاطمئنان لأنه يؤدى واجبه كاملا ثم يأخذ فى أثناء خروجه قلم رصاص أو بعض الأوراق التى تصرف له لأداء أعمال الحكومة أو الشركة أو المصنع الذى هو فيه ليستخدمها ابنه أو يستخدمها هو فى شئونه الخاصة ، والوالد الذى يهمل أولاده ولا يبذل كل عناية فى تربيتهم ، والزوج الذى يظلم زوجته أو والدته ، والطبيب الذى يرى الداء ويعرف الدواء ولكنه يؤخر أسباب الشفاء حتى يستكثر من زيارة المريض ، والمدرس الذى يقصر فى حق تلاميذه رغبة عن إفادتهم أو حتى يلزمهم بتلقى دروس خصوصية ، هؤلاء وغيرهم بعيدون عن الإسلام الصحيح كل البعد ،

العدد الرابع

السنة الثانية

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:
٣٢ شارع النيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون: ٢٤٤٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربى
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات

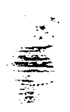
قرش
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة

للطلاب وجنود الجيش

٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢ — فبراير سنة ١٩٥٣





هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبى
المرشد العام للاخوان المسلمين

«إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»

لاينبغى للمسلم أن يقف عند العبادات ولايتجاوزها ، فمع أنها من الأهمية بالدرجة العظمى إلا أنها ليست كل شىء ؛ بل أصبح العابد الذى يقتصر على العبادة ويظن أن الله لم يكلفه غيرها أقرب إلى الإضرار بالدين بما يكون من سوء فعله فى فتنة الناس عنه. فالتاجر الذى لا يكاد يفرغ من غش الناس حتى يتجه إلى المسجد لأداء الفريضة ، والموظف الذى يشعر بالاطمئنان لأنه يؤدى واجبه كاملا ثم يأخذ فى أثناء خروجه قلم رصاص أو بعض الأوراق التى تصرف له لأداء أعمال الحكومة أو الشركة أو المصنع الذى هو فيه ليستخدمها ابنه أو يستخدمها هو فى شئونه الخاصة ، والوالد الذى يهمل أولاده ولا يبذل كل عناية فى تربيتهم ، والزوج الذى يظلم زوجته أو والدته ، والطبيب الذى يرى الداء ويعرف الدواء ولكنه يؤخر أسباب الشفاء حتى يستكثر من زيارة المريض . والمدرس الذى يقصر فى حق تلاميذه رغبة عن إفادتهم أو حتى يلزمهم بتلقى دروس خصوصية ، هؤلاء وغيرهم بعيدون عن الإسلام الصحيح كل البعد ،

يصدون الناس عن الدين ويوحون إليهم بأن الدين لايجدى فى تربية النفوس ولايقيم المتدينين على منهاج من الأخلاق . وليس الذنب فى ذلك ذنب الدين وإنما هو ذنب الذين لايفهمون الدين على حقيقته ويجعلونه هيكلا عظميا لا روح فيه ولا لحم ولا دم ، وهم يحسبون أنهم بما أدوا من صلوات أو صوم أو حج يحسنون صنعا .

إن فى العبادات أسراراً قد نعلمها وقد لا نعلمها ، ويجب أن نتلقاها أمراً من الله مفروضاً علينا ؛ ومع ذلك فلنا أن نفكر فيها ، ونستكشف خباياها . ومن أسرار العبادات أنها تهيئ النفس إلى احتمال المشقات والتكاليف التى كلف الله بها عباده ، وتخفف من ثقلها على الطبائع . اقرأ قوله تعالى لنبيه: « يأيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا[١] » ؛ فعلاقة العبادة بتحمل التكاليف ظاهرة فى هذه الآيات .

وما لم تؤد العبادات إلى هذه النتيجة كان أداؤها غير محقق للأغراض التى قصدت منها . ومن الأغراض المقصودة — والله أعلم — أن يكون الإنسان على خُلق ؛ فإن الأخلاق الفاضلة من أصعب الأمور ما لم تهيأ لها النفس تماماً ، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لم يكن لذى الخلق فضل على غيره ؛ إذ اليسير من الأمر من الممكن إدراكه لكل إنسان .

ومن الأخلاق التى يرضى عنها الله أن يكون المسلم عزيزاً فلا يذل لأحد ولا يقبل ضيما ، ولا يعتقد أن أحداً يستطيع أن يصله بشىء لم يأذن الله به ، ولا يحرمه شيئا أراده الله له ؛ وصدق الله العظيم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين[٢] » ، « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم[٣] » .

وهو مع عزته لين العريكة ، موطأ الأكناف من الذين يألفون ويؤلفون ، متواضع فى غير ضعف ، مترفع فى غير عنف ، يقول دائما : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم[٤] » .

وينبغى أن يكون المرء صادقا ؛ فالصدق من الصفات التى عدها الله من موجبات ذكر الأنبياء فقال تعالى : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد[٥] » .

(١) المزمل : ١ — ٥ (٢) المنافقون : ٨

(٣) يونس : ١٠٦ ، ١٠٧ (٤) فصلت : ٣٤ (٥) مريم : ٥٤

وأمرنا الله تعالى بأن نكون مع الصادقين فقال : «اتقوا الله وكونوا مع الصادقين[1]» . والصدق يكون فى القول ويكون فى الفعل ؛ فإذا وعدت إنساناً عدة فيجب أن تكون صادقاً فيما وعدت ، قاصداً الوفاء ، عاملا له ، ولا يصح أن يكون الوعد بقصد التخلص من موقف ، أو دفع إلحاح ، أو إرضاء لخاطر أحد من الناس . وإذا تحدثت بشىء فلا تتحدث بما يتنافى مع الحقيقة التى تعلمها وتعتقدها . وإذا استنصحك أحد فاصدق فى نصحه ، ولا تجعل نصحك مشوبا بالهوى أو الغرض وإلا كنت غاشا مخادعاً .

وإذا عملت عملا فكن صادق العزم على القيام به على وجهه الصحيح ، موفياً حق طالبه ، صادقا فيما تطلب من حقك . حدثت بحديث فى شأن صدق الوعد واعتباره قيداً لا ينفك عنه الإنسان لا بأس من أن أسوقه للدلالة على ما تنطوى عليه النفوس الكبيرة من الخير : ذلك أن أحد رؤساء الوزارة فى التاريخ الحديث — ولم يكن مشهوراً بالتدين — باع قدراً من الأطيان لشخص ما ، ووعده بالتوقيع على العقد بعد أن يهيأ . وفى هذه الأثناء جاءه شخص آخر يريد شراء هذه الأطيان فأخبره بأنه باعها لفلان ، فعرض عليه ثمناً يزيد نحو عشرين ألفاً من الجنيهات وقال : له إنك لم توقع العقد ، فقال : إن كلامى عقد ، فاذهب إلى المشترى وادفع له الفرق واتفق معه وأنا أمضى العقد لأيكما .

وكانت هذه الحادثة مدار مقارنة بين هذا الذى لم يشتهر عنه التدين وبين بعض المتدينين أو العلماء الذين يفرض فيهم الاستفادة من الدين .

ومن الصفات العظيمة التى يفتقدها الإنسان فى الناس الأمانة : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[2]» ، «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا[3]» . ومن أقوال الرسول عليه السلام : أربع من كن فيه كان منافقاً ، وذكر منها : إذا أؤتمن خان .

وليست الأمانة قاصرة على شىء دون شىء فكما يكون الإنسان أمينا على المال يكون أميناً على كل شىء كلف بواجب نحوه ؛ فالزوج أمين على زوجه ، والوالد أمين على عياله ، والطبيب أمين على المريض ، والمدرس أمين على تلاميذه ، وأنت أمين على العلم الذى بين جنبيك وهكذا . . .

إن هذا الخلق من أعظم الأخلاق ونحن نفتقده بيننا فلا نكاد نجد له أثراً عند كثير

(١) التوبة : ١١٩

(٢) النساء : ٧

(٣) الأحزاب : ٧٢

من الناس ، مع أن فواته كفيل بأن يهدم دولا بأسرها . وفكر فى الأمر بين أن يأخذ الإنسان نفسه بالأمانة فى كل ما وجب عليه ، وبين أن يترخص فيها ويلتى بها ظهريا وينطلق وراء أهوائه تجد أثر ذلك بالغا ، وعواقبه من أسوأ العواقب .

أردت بكتابة هذه الكلمات أن أنبه إلى أن كمال المسلم لا يتم بالعبادات وحدها ؛ بل يجب أن يكون مشتملا على الأخلاق القرآنية العظيمة متبعا لها ، عاملا بها ، حريصا عليها . وهذا هو الذى يميزه عن غيره ؛ إذ يجب أن يكون المسلم ممتازاً عن غيره فى كل شىء . وهذا التميز لازم للاسلام لأنه من رب العالمين وكل ما فيه صحيح وضعه خالق الخلق العليم بما تصلح به أحوالهم . وإن فى آيات القرآن كثيراً من أمثال ما ذكرت ؛ ولكنى اقتصرت عليه لأنه أولى بالتنبيه من غيره :

العزة — الصدق — الأمانة

فضائل تستأهل الحرص عليها ، والله يوفقنا ويهدينا سبيل الرشاد .





كل مصيبة بعدك جلل !

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الواحد بن أبى عون عن إسماعيل بن محمد عن سعد بن أبى وقاص قال :

مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ؛ فلما نُعوا لها قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالوا : خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين .

قالت : أرونيه حتى أنظر إليه !

فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل ! (تريد صغيرة) .

« سيرة ابن هشام »

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

الغرائز بين الفتون والرشد

* * *

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى ولم نجد له عزما [1] » .

فى هذه الآية الكريمة يذكر الحق تبارك وتعالى أن النسيان وامّحاء العزم هما سببا هبوط المرء إلى الفتنة والمعصية .

ومن مضمون الآية الكريمة أيضا أن التذكر وانعقاد العزم هما سببا صعود المرء إلى الرشد والخير .

والصعود والهبوط — فى هذا المقام — أمران معنويان لا يدركان بالحس ولا يضبطان بالمشاهدة . . . وما لم يكن هناك قياس يُعرف به الصعود والهبوط ؛ أو ما لم يكن هناك مثل أعلى ينسب إليه سلوك المرء ، وتقاس به الأقوال والأفعال ، فيعرف الصالح والفاسد ، والطيب والخبيث ، فإن السبل تنبهم ، والأعمال تختلط ، والقيم تتشابه ، ويصبح المحسن والمسيء فى ميزان تلك الفوضى متماثلين فى الجزاء والتقدير . . . لذا نرى الآية الكريمة قد تضمنت الإشارة إلى ذلك القياس أو ذلك المثل الأعلى إذ قالت : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل . . . » فعهدُ الله سبحانه من أمر أو نهى هو المرجع الذى يرجع إليه ليعرف على ضوئه صعود الأعمال أو هبوطها ؛ حُسنها أو قبحها ؛ خيرها أو شرها . . .

فنحن — إذاً — بإزاء أمور ثلاثة تقررها الآية الكريمة بشأن الصلاح والفساد هى :

عهد الله الذى يصف لنا الخير فنتبعه ، والشر فنجتنبه . .

---

[1] طه : ١١٥

نسيان العهد أو ذكره .
امّحاء العزم أو انعقاده .

* * *

أولا : العهد

أما العهد فى القصة فهو أمر الله الذي حرم به على آدم وزجه الأكل من الشجرة ... وأما بالنسبة إلى سائر الناس فإن كل أمر أو نهى منه جل ثناؤه يعتبر عهدا . . وأوثق ما بيننا وبينه سبحانه من عهود وأجمعها وأبقاها عهدُ الربوبية الذى أقرت به الفطر منذ الأزل فى قوله تعالى : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . . . الآية [1] » .

وعهد الله سبحانه إلى الإنسان من أمر أو نهى ، ليس منابذاً لما فى فطرته ، ولا غريبا عنه ؛ بل هو سر مجانس لروح تلك الفطرة ، ونور من مصدر نورها الأول؛ يزيد به الخير ، ويتضح به الحق ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ..

وكل إنسان — بما نفخ الله فيه من روحه — أهل لأن يتلقى عهد الله ، ويحمله ويعمل به . . وسر ذلك الروح فى كيانه هو المهد الذى يتلقف بين أعطافه كل ما ينزل الله جل شأنه من وحى ورسالة .

ولقد بينا فى غير موضع مما سبق أن ذلك الامتياز هو أسمى ما فضل به الإنسان على كثير ممن خلق الله . . . . فهو عقله الروحى الذى يدرك به قيم المعانى ، وحقائق ما أنزل إلينا الله سبحانه من عهد .

والمرء بخير ما دام يصدر فى حياته الواقعية عن نور هذا العقل .

ولقد ذكرنا فيما مضى أن للانسان عقلين : أحدهما روحى ، والآخر منطقى ... وإن شئت فقل : إن عقل الإنسان ذو صفحتين ، إحداهما منطقية ، تنظم لنا علاقة الأشياء بعضها ببعض فى عالم المحسات . . . . والأخرى روحية هى البصيرة التى يكشف بها الإنسان كيف يجعل كل شىء فى هذا العالم الحسى متسقاً مع أغراض المثل العليا ، وخادماً لها أو معينا عليها .

ولو خلى الإنسان إلى عقله هذا الروحى لاستقام على أقوم سبيل إلى مثله العليا ... ولكنه امتحن فى ذلك بما بث فى بشريته من ميول أو قوى أو غرائز .... أو بعبارة

(١) الأعراف : ١٧١

أصبح امتحن بقابلية هذه الغرائز للانحراف عن هداية العقل الروحى إلى ما يزين الشيطان من غرور وأهداف لا حقيقة لها . . . . وقد رأينا — فيما تقدم — كيف أن الشيطان حين سوّل لآدم عليه السلام أن يأكل من الشجرة ، لم يأته من قِبَل نور الله فيه ؛ بل جاءه من قبل غرائزه يحدثها عن لذة الخلود والملك الذى لا يبلى ، حتى تحولت عن عهد الله إلى ما أراد لها من المعصية .

* * *

ثانيا : النسيان

وقد رجعنا إلى ما كتبه المفسرون عن النسيان المسند إلى آدم عليه السلام ، فلم نجد فيه ما ينقع غلة أو يشفى علة — كما يقولون — . . . نعم لم نجد فى كلامهم ما يبين لنا كيف تكون المعصية مع النسيان ؟ . أو كيف يكون فعل الناسى معصية ، مع أن الله قد رفع عن عباده الخطأ والنسيان ، وهو سبحانه أجل من أن يعاقب على شيء منه ؟ .. فرجعنا إلى القرآن الكريم نفسه فوجدنا النسيان يدور فيه على عدة معان أهمها وأبرزها الوجوه الآتية .



١ — النسيان الذى يطرأ فى الذهن على الحوادث وأسماء الأشخاص ، وما يكون المرء قد حفظ من المقررات العلمية . . . وهو نقيض الذكر ؛ ومثاله قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى(١) » .

وهذا الضرب من النسيان ليس معنا ؛ إذ لا يقال إن آدم أكل من الشجرة وليس فى ذهنه شيء من أمر الله ونهيه ؛ فإن الشيطان قال له : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » . أى أنه ذكره نهى الله ، وأعاده على ذهنه ؛ فلا محل لأن يقال إنه عليه السلام أكل وهو ناس .

٢ — النسيان الذى ينطوى على معنى السهو ، كما ينسى الإنسان عصاه أو مسبحته فى مكان ما ، أو كما يريد أن يتكلم مع شخص ما فى عدة أمور ، فيتكلم عن بعضها ويسهو عن بعض ، فلا يذكره إلا فيما بعد . . . ومثاله ما حكاه الله سبحانه عن فتى موسى عليه السلام إذ قال : « أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت . . . الآية(٢) » وقول موسى للعبد الصالح عليهما السلام : « لا تؤاخذنى بما نسيت(٣) » .

---

(١) الأعلى : ٦

(٢) الكهف : ٦٤

(٣) الكهف : ٧٣

وكذلك نستبعد أن يكون هذا الضرب من النسيان معنا ؛ فإن السهو يكفى للتنبه منه أقل إشارة أو حركة أو كلمة ؛ .. ولا يعقل أن يكون آدم أكل من الشجرة ساهيا بعد أن ذكره الشيطان بما ذكره به .

٣ ، ٤ — وثم ضربان من النسيان بمعنى ذهاب الاهتمام بالشىء ؛ ومثله فى القرآن قوله سبحانه : « نسوا الله فنسيهم » (١) .

فالنسيان المسند إليهم معناه ذهاب اهتمامهم بأمره سبحانه ؛ فإن أحد هؤلاء قد يأخذ فى لهو الحديث ويشتغل بالباطل من الغايات ؛ فإذا ذكرته بأمر الله لاترى عليه من هزة الاهتمام مثل ماترى له حين تنبهه أن يأخذ عصاه أو مسبحته التى نسيها ؛ بل ترى آثار التهاون وقلة المبالاة التى تدل على أن عقدة العهد قد انحلت من ضميره ، وبردت الغيرة عليه فى قلبه . . . . فهو — إذا — من نسيان القلوب ، لامن من نسيان العقول ، إذا صحت هذه التسمية ، وساغت تلك التفرقة ! !

أما النسيان المسند إليه سبحانه ، فليس من نسيان القلوب — حاشاه — ولا من نسيان العقول ؛ إنما معناه أنهم لما نسوا الله ، وزال اهتمامهم بأمره ، صرف عنهم فضله الذى لايستغنى عنه أحد ، ووكلهم إلى نفوسهم وإلى ما أعدَّ لهم من عذاب ؛ ومنه قوله سبحانه : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون (٢) » . . . ولا يعقل فى حق الله سبحانه غير هذا المعنى ، إذ لايطرأ عليه جل شأنه مايطرأ على العباد ؛ ولقد قرر القرآن ذلك بأوضح لفظ وأوفاه إذ قال : « لايضل ربى ولاينسى » (٣) « وما كان ربك نسيا (٤) » . .

ومن البديهى أن النسيان المسند إلى آدم حين أكل من الشجرة ، ليس من قبيل النسيان المسند إلى الله جل شأنه فلم يبق إلا أنه من قبيل النسيان المسند إليهم بمعنى صيرورة القلب إلى لحظة من الفتور عن أمر الله سبحانه .

* * *

وقد قلنا إن الشيطان لا يأتى الإنسان من قبل صوابه الروحى ، فهو أعجز من أن يواجه هذا النور ، بل يأتيه من جانبه المطاوع — جانب الغرائز — وهو جانب يملك الاستجابة . . . ولا يملك التميز ! !

يملك الاستجابة لأى نداء ... من الملك أو الشيطان ... من الله أو من غير الله !!

---

(١) التوبة : ٦٨ (٢) السجدة : ١٤

(٣) طه : ٥٢ (٤) مريم : ٦٤

وليس له رشد يميز به مايسمع من نداء ، ولا مايدعى إليه من غاية ... إذا اتجه إلى الحق اتجه إليه دون تمييز له ... وإذا انحرف إلى الباطل ، انحرف دون تدبر لقيمته ... فهو أذن سميعة ؛ وحركة مطيعة ... وليس عينا تبصر ، ولا عقلا يدبر !

فإذا سول الشيطان لتلك الغرائز أمراً من الأمور ؛ أو زين لها غاية من الغايات — وهو لايزين لها إلا ماتحبه — لانت لسماعه ، ومالت إلى متابعته ... وكان لها من اللذة الحالمة ؛ والسريان العذب ؛ والإغراء المطمع ، مايجعل القلب يستحب الركون إليه ؛ ويأنس لمطاوعته والمزيد منه ؛ وينصرف بالتدريج عما لديه من أمر الله ؛ حتى يغدو مشغولا بخواطر جديدة ، وآمال غير التى كان يتعلق بها ، وغايات غير التى كان يرسمها له إيمانه بالله . . . وذلك هو النسيان القلبى ! !

ونسيان القلب لعهد من عهود الله ، ليس معناه زوال هذا العهد من القلب ؛ بل معناه أن قيمة أخرى لاحت له بتزيين الشيطان ، فأخذ يوازن بين القيمتين ؛ ويقايس بين الطرفين ؛ حتى مال إلى الجانب المعارض لأمر الله ، فصرف إليه همته ، وعبأ له جهوده ... وترك عهد الله فى زاوية من زوايا القلب ، كالشىء الذى أدركه النسيان فى شعبة من شعاب الذاكرة ...

وحقيقة هذا النسيان ولبه أن تفقد الفضائل والمثل العليا قيمتها فى نظره ... وبعد أن كان كل شىء فى عالم المحسات متسقا مع أغراضها ؛ وخادما لها أومعينا عليها ، ينعكس الوضع ، وتصبح تلك الأشياء الحسية هى المثل الأعلى الذى يجب أن يخدمه ويتسق مع أغراضه كل قيمة من القيم وكل فضيلة من الفضائل ... وذلك هو منهاج كل فتنة فى الأرض وفساد كبير .

* * *

ثالثا : العزم .

أما الأمر الثالث فى الآية الكريمة فهو قوله جل ثناؤه : « ولم نجد له عزما » .
والعزم على ماورد فى كتب اللغة يتناول عدة أمور لايهمنا منها — فى هذا المقام — سوى معنيين اثنين :

الأول : العزم بمعنى انعقاد الضمير على فعل أمر من الأمور ، وتوفر الإرادة له ... فكأنه بهذا المعنى ضد النسيان القلبى الذى أشرنا إليه آنفاً ... فإذا ظل القلب على عقدته وعزمه فهو ذاكر ... وإذا انحلت عقدته ؛ وماعت إرادته فهو ناس لامحالة . .

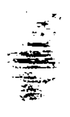
أما المعنى الآخر : فهو العزم بمعنى المضى فعلا فيما انعقد عليه الضمير ؛ والاجتهاد فى إنفاذه ، والصبر على مايعترض طريقه من مشقه وأذى .

* * *

وامّحاء العزم هو الآفة التى تترتب لامحالة على النسيان القلبى . !

وقد قلنا إن عهد الله سبحانه لا يزايل قلب المرء حين طروء النسيان عليه ؛ بل يظل قائما فى زاوية من زواياه ... لايرى منه سوى صورته . . . أما حرارته وروحه القوى المنهض ، فلا يصل إليه شيء منه .

ومن هنا ترى الكثيرين يحسنون الكلام عن المثل العليا ، دون أن يؤثر عن أحدهم أنه نهض فعلا بحق مايتحدث به ، وذلك بعض ماصدق به الشيطان ظنه على كثير من الناس إذ أقسم بين يدى الله سبحانه قسمه الذى يقول فيه : « ولأضلنهم ، ولأمنينهم » .



أما الإضلال ، فقد مضى معناه .

وأما التمنية فهى تلك الحالة التى يكون المرء فيها على علم بما جاءه من الله ، دون أن يكون له نهضة إلى تحقيق شيء منه ، كأنما أصابه الشيطان بكساح العزيمة ! وليس هؤلاء من حقيقة الإيمان فى شيء ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . . . إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله ! وكذبوا ؛ لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له » .

وقال الزمخشرى فى تفسير قوله سبحانه (يعدهم ويمنيهم) : « وإذا أبطل الله الأمانى ، وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل ، وأن من أصلح عمله فهو الفائز . . ومن أساء فهو الهالك ، تبين الأمر ، ووضح وجوب قطع الأمانى ، وحسم المطامع ، والإقبال على العمل الصالح . . . ولكنه نصح لا تعيه الآذان ، ولا تُلقى إليه الأذهان ! »[1] .

(١) يصدر كتاب آدم عليه السلام للأستاذ البهى الخولى قريبا — بإذن الله — بعد أن زالت الأسباب الطارئة القاهرة التى حالت دون صدوره حتى الآن .

السُّنَّة

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى

(٢)

علم مصطلح الحديث :

وكان من ثمار تلك الحركة التى قام بها العلماء لمقاومة الوضع ولادة علم « مصطلح الحديث » وهو العلم الذى يضع القواعد العلمية لتصحيح الأخبار ، وهى فى الحق أصح ما عرف فى التاريخ من قواعد علمية لنقد الأخبار والروايات ، وكان لعلمائنا رحمهم الله فخر السبق إلى وضع هذه القواعد على أساس علمى فى منتهى الحيطة والتثبت ، وقد نهج على نهج علماء الحديث علماء السلف فى الميادين العلمية الأخرى كالتاريخ والفقه والتفسير واللغة والأدب وغيرها ، فكانت المؤلفات العلمية فى العصور الأولى مسندة فى كل مسألة بالسند المتصل إلى قائلها ، حتى إن كتب العلماء ذاتها تناقلها الناس عنهم بالسند المتصل جيلا بعد جيل ، فنحن لا نشك فى أن صحيح البخارى المتداول الآن بين المسلمين ألفه الإمام البخارى وأن نسبته إليه نسبة ثابتة مؤكدة ، لأنه روى عنه بالسند المتصل جيلا بعد جيل ، ولا يزال المعنيون بأخذ الرواية عن العلماء يروونه بالسند المتصل إلى الإمام البخارى ، ولى إجازات عدة عن شيوخ لى من دمشق وحلب والهند وغيرها أروى فيها أوائل الكتب الستة بالسند المتصل إلى أصحابها ، وهذه ميزة لا توجد فى مؤلفات العلماء من الأمم الأخرى ، حتى إن كتبهم المقدسة منقطعة السند لا تروى بالسماع المتصل إلى واضعيها .

وعلم مصطلح الحديث يبحث — كما رأينا فى المقالات السابقة — عن تقسيم الخبر إلى صحيح وحسن وضعيف ، وتقسيم كل منها إلى أنواع ، مع بيان الشروط المطلوبة فى الراوى والمروى وما يدخل الأخبار من علل واضطراب وشذوذ ، وما يتوقف فيها إلى أن تعضد بمقويات أخرى ، وبيان أحوال سماع الحديث وتحمله وضبطه وآداب المحدث وطالب الحديث وغير ذلك مما كان فى الأصل بحوثاً متفرقة وقواعد قائمة فى نفوس العلماء فى القرون الثلاثة الأولى ، إلى أن أفرد بالتأليف والجمع والترتيب شأن العلوم الإسلامية الأخرى فى تطورها وتدرجها .

وكان أول من ألف فى بعض بحوثه « على بن المدينى » (٢٣٤) شيخ البخارى ، كما تكلم البخارى ومسلم والترمذى فى بعض أبحاثهم فى رسائل مجردة لم يضم بعضها إلى بعض ، ثم كان أول من صنف فى هذا الفن تصنيفاً علمياً بحيث جمع كل أبوابه وبحوثه فى مصنف واحد هو القاضى أبو محمد الرامهرمزى (٣٦٠) فى كتابه « المحدث الفاصل بين الراوى والسامع » لكنه لم يستوعب فيه كل بحوث هذا العلم ، ثم جاء بعده الحاكم أبو عبد الله النيسابورى (٤٠٥) فألف فيه كتابه « معرفة علوم الحديث » ، لكنه لم يهذب ولم يرتب ، ثم تلاه أبو نعيم الأصفهانى (٤٣٠) فألف كتاباً تأثر فيه بكتاب الحاكم النيسابورى وزاد عليه أشياء ، ثم جاء بعدهم الخطيب البغدادى (٤٦٣) فصنف فى قوانين الرواية كتاباً سماه « الكفاية » ، وفى آدابها كتاباً سماه « الجامع لآداب الشيخ والسامع » ثم جاء من بعده القاضى عياض (٥٤٤) فألف كتابه « الإلماع » مستمداً بحوثه من كتب الخطيب ، ثم جاء الشيخ الحافظ تقى الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح الدمشقى (٦٤٢) فألف كتابه المشهور « مقدمة ابن الصلاح » أملاه على تلاميذه بالمدرسة الأشرفية فى دمشق من غير ترتيب محكم ، إلا أنه كتاب شامل لكل ما تفرق فى غيره من كتب المتقدمين ؛ ولهذا عكف الناس عليه وأكبوا على شرحه بين ناظم وناثر كألفية العراقى وشرحها للسخاوى ، كما اختصره الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقى (٧٧٤) فى كتابه « الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث » .

وتوالت التآليف بعد ذلك حتى كان آخر من كتب فى هذا الفن من العلماء المحققين الشيخ طاهر الجزائرى (١٣٣٨) فى كتابه « توجيه النظر » والشيخ جمال الدين القاسمى (١٣٣٢) فى كتابه « قواعد التحديث » وهو كتاب ذو فوائد جمة وترتيب مفيد .

علم الجرح والتعديل

ومن ثمار هذه الجهود المباركة « علم الجرح والتعديل » أو علم ميزان الرجال ، وهو علم يبحث فيه عن أحوال الرواة وأمانتهم وثقتهم وعدالتهم وضبطهم أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان ، وهو علم جليل من أجل العلوم التى نشأت عن تلك الحركة الميمونة لانعرف له مثيلا أيضاً فى تاريخ الأمم الأخرى ، وقد كان العلماء يختبرون الرواة بأنفسهم ممن يعاصرونهم ويسألون السابقين عمن لم يعاصروهم ، ويعلنون رأيهم فيهم دون تحرج ولا تأثم إذ كان ذلك ذباً عن دين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،

وقد قيل للبخارى : إن بعض الناس ينقمون عليك « التاريخ » يقولون : فيه اغتياب الناس ، فقال : إنما روينا ذلك رواية ولم نقله من عند أنفسنا ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « بئس أخو العشيرة » .

ولم يكن الأئمة الذين عنوا بهذا الفن على استواء واحد فى مقاييس النقد الذى يوجهونه للرواة ، بل كان منهم المتشدد كابن معين والقطان وابن حبان وأبى حاتم الرازى ، ومنهم المتساهل كالترمذى والحاكم وابن مهدى ، ومنهم المعتدل كأحمد والبخارى ؛ وبذلك تباينت الآراء فى بعض الرواة ، فمنهم من يوثقه ، ومنهم من يضعفه ، وقد ينقل عن العالم الواحد رأيان مختلفان فى راو واحد ، فقد يراه اليوم ثقة ثم يرى منه بعد ذلك ما يضطره للعدول عن حكمه ، وقد يكون الأمر عكس ذلك .

ومن أسباب الاختلاف فى التجريح والتعديل اختلاف منازع الفقهاء فى الاجتهاد ، فالنزاع بين أهل الحديث وأهل الرأى مشهور معروف أدى إلى أن يطعن بعض أهل الحديث فى بعض أئمة أهل الرأى وأن يعدوهم من الضعفاء ، لا لشىء غير نزعتهم الاجتهادية التى لا تتفق مع نزعة أهل الحديث ، وحسبك دليلا على هذا أن إماما جليلا من كبار أئمة التشريع فى تاريخ الإسلام وهو أبو حنيفة رحمه الله ، تحامل عليه كثير من المحدثين ، وجرحه بعض علماء الجرح والتعديل مع زهده وورعه وتقواه وجلالة قدره ، وما ذلك إلا لدقة طريقته العلمية فى فهم النصوص واستنباط الأحكام مما خفى على كثير من المحدثين بل كثير من كبار أئمتهم ، وقد أدى تعصب العامة عليه من أهل الحديث إلى أن يتهموه بما يقطع التاريخ بكذبه .

ولعل هذا الاختلاف فى ميول الناقدين وأنظارهم وتفاوتهم فى الشدة والتساهل ، هو الذى دعا أكثر العلماء إلى أن لا يقبلوا جرحا إلا أن يكون مفسراً خشية أن ينشأ الجرح عن خطأ فى تقدير الناقد أو عصبية مذهبية ، قال الحافظ ابن كثير : « بخلاف الجرح فإنه لا يقبل إلا مفسراً لاختلاف الناس فى الأسباب المفسقة ، فقد يعتقد الجارح شيئاً مفسقاً ولا يكون كذلك فى نفس الأمر أو عند غيره ، فلهذا اشترط بيان السبب فى الجرح (١) » .

ومن طريف ما يذكر فى هذا الموضوع ما نقل عن بعضهم أنه قيل له : « لم تركت حديث فلان ؟ فقال : رأيته يركض على برذون فتركت حديثه » ! . . وسئل بعضهم عن

(١) الباعث الحثيث : ١٠١

حديث يرويه صالح المري ، فقال : ما يصنع بصالح ؟ ذكروه يوما عند حماد بن سلمة فامتخط حماد ! (١) .

فانظر كيف كان بعض الناس يجرحون الرجال لأسباب واهية لا علاقة لها بالعدالة والثقة والضبط ، ولكن الحق أن هذا صنيع الجاهلين أو المتطفلين على هذا العلم ، أما الأئمة المنتصبون لهذا الشأن العريقون فى مداخله ومخارجه فلا يقعون فى مثل ذلك الحكم الجائر والنقد المضحك .

وقد ابتدأ الكلام عن الرواة توثيقاً وتوهيناً منذ عصر صغار الصحابة كابن عباس (٦٨) وعبادة بن الصامت (٣٤) وأنس بن مالك (٩٣) ثم كان من التابعين سعيد بن المسيب (٩٣) والشعبى (١٠٤) وابن سيرين (١١٠) والأعمش (١٤٨) ثم تتالى الأمر بعد ذلك فكان شعبة (١٦٠) متثبتاً لا يروى إلا عن ثقة ، وكان الإمام مالك (١٧٩) وهو من تعرف .

وفى أوائل القرن الثالث الهجرى ابتدأ تصنيف الكتب فى الجرح والتعديل؛ ومن أوائل من ألفوا وتكلموا : يحيى بن معين (٢٣٣) وأحمد بن حنبل (٢٤١) ومحمد بن سعد صاحب الطبقات (٢٣٠) وعلى بن المدينى (٢٣٤) ثم تلاهم البخارى ومسلم وأبوزرعة الرازى (٢٦٤) وأبو حاتم الرازى (٢٧٧) وأبو داود السجستانى (٢٧٥) .

وتتابع العلماء بعد ذلك حتى أواخر القرن التاسع الهجرى طبقة بعد طبقة حتى لا يعسر عليك أن تجد فى مؤلفاتهم تاريخ أى رجل يمر بك اسمه فى كتب الحديث .

وكتب الجرح والتعديل أصناف : منها ما أفرد لذكر الثقات فقط ككتاب الثقات لابن حبان البستى (٣٥٤) ومنها ما أفرد للضعفاء فقط وممن ألف فيهم البخارى والنسائى وابن حبان والدارقطنى (٣٨٥) والعقيلى (٣٢٢) وابن الجوزى (٥٩٧) ، ومنها ما جمع فيها بين الثقات والضعفاء ومن أشهرها تواريخ البخارى الثلاثة : الكبير وهو مرتب على حروف المعجم ، والأوسط والصغير وهما مرتبان على السنين ، وكتاب الجرح والتعديل لابن حبان ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم الرازى (٣٢٧) والطبقات الكبرى لابن سعد ، ومن أجود الكتب فى ذلك « التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل » للحافظ ابن كثير جمع فيه بين تهذيب المزى وميزان الذهبى مع زيادات وتحرير فى العبارات وهو أنفع شىء للمحدث والفقيه التالى لأثره (٢) .

---

(١) هامش الباعث الحثيث : ١٠١

(٢) توجيه النظر : ١١٨

مِن علوم السُّنة

فى البيوع والكسب والمعاش وما يتعلق بالتجارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا

(٧)

باب ما جاء فى بيع الخمر والنجاسة وما لا نفع فيه

١ — عَنْ عَطاءِ بن أَبِى رَبَاحٍ قال : سمعت جابر بن عبد الله — وهو بمكة — وهو يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عام الفتح : « إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ورسولَه حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ والْمَيْتَةِ والخنزير والأصنام » فقيل له عند ذلك : يا رسول الله أرأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فإنَّهُ يُدْهَنُ بها السُّفُنُ وَيُدْهَنُ بها الجلود ، وَيَسْتَصْبِحُ[1] بِهَا النَّاسُ ، قال : « لا ، هو حرام » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك : « قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ ؛ إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لمَّا حَرَّمَ عليها الشُّحُومَ جَمَلُوها ثم باعُوها وأكلُوا أثمانها » .

٢ — عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزلت الآيات من آخر البقرة فى الربا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد وحرَّم التجارةَ فى الخمر .

٣ — عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُسْتَقْبِلًا الحجر[2] قال فنظر إلى السماء فضحك ، ثم قال : « لَعَنَ اللهُ اليهودَ حُرِّمَتْ عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ، وإن الله عزَّ وجلَّ إذا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكْلَ شىء حَرَّمَ عليهم ثمنه » .

---

(١) أى يجعلونها فى سرجهم ومصابيحهم يستضيئون بها .
(٢) يعنى الحجر الأسود .

٤ — عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ البُنَانِي قال : كنت مع ابن عمر فجاء رجل فقال : يا أبا عبد الله إنى أشترى هـذه الحيطان[1] تكون منها الأعناب فلا نستطيع أن نبيعها كلها عنباً حتى نعصره . قال : فعن ثمن الخمر تسألنى ؟[2] ، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كنا جلوساً مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذ رفع رأسه إلى السماء ثم أكبّ[3] ونكت فى الأرض[4] وقال : « الويل[5] لبنى إسرائيل » ، فقال له عمر : يا نبى الله لقد أفزعنا قولك لبنى إسرائيل ، فقال : « ليس عليكم من ذلك بأس[6] ، إنهم لما حُرِّمَتْ عليهم الشحوم فيُذيبونه فيَبيعُونَه فيأكلون ثمنه ، وكذلك ثمن الخمر عليكم حرام » .

٥ — عَنْ عُرْوَةَ بن المُغِيرَةِ الثَّقَفِى عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من باع الخمر فَلْيُشَقِّصِ[7] الخنازير : يعنى يُقصِّبُها » .

٦ — عن نافع بن كَيْسان أن أباه أخبره أنه كان يتجر بالخمر فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمسٌ فى الزِّقَاقِ[8] يريد بها التجارة ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إنى جئتك بشراب جيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا كَيْسان إنها قد حُرِّمَت بَعْدَكَ[9] » قال : أفأبيعُها يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

(١) جمع حائط ، والمراد به هنا البستان من النخيل والأعناب إذا كان عليه حائط وهو الجدار .
(٢) استفهام إنكارى .
(٣) أكب : أى طأطأ رأسه إلى الأرض .
(٤) أى أثر فيها بأصبعه .
(٥) الويل : الهلاك والمشقة فى العذاب .
(٦) أى حرج .
(٧) أى يقطعها كما تقطع الشاة إذا بيع لحمها .
(٨) الزقاق : جمع زق بكسر الزاى ؛ وهو السقاء أو جلد يجز ولا ينتف يستعمل للشراب وغيره كالقربة .
(٩) أى بعد ما فارقتنا .

« إنها قد حُرِّمَتْ وَحُرِّمَ ثمنُها » ، فانطلق كَيْسَانُ إلى الزقاق فأخذ بأرْجُلِها ثم أهْرَاقها[1] .

٧ — عن عبد الرحمن بن وَعْلَة قال : سألت ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن بيع الخمرة فقال : كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صديق من ثقيفٍ أوْ من دَوْسٍ فلقيه بمكة عامَ الفتح بِرَاوِيةِ[2] خَمْرٍ يهْدِيها إليْهِ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أبا فلانٍ : أما علِمْتَ أنَّ الله حرَّمها » ، فأقبل الرَّجُل على غُلامه فقال : اذْهَبْ فَبِعْها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أبا فلانٍ بماذا أمَرْتَه ؟ » قال : أمرته أنْ يَبِيعَها ، قال : « إنَّ الذى حرَّمَ شُرْبَها حرَّم بيْعَها » فأمَرَ بها فأُفْرِغَتْ فى البطْحاء[3] .

٨ — عن عبد الرحمن بن غَنْم الأشْقَرِى ـ رضى الله عنه ـ أن الدَّارِىَّ[4] كان يهدى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلَّ عامٍ رَاوِيةً من خَمْرٍ ، فلمَّا كانَ عام حُرِّمَت لجاء بِرَاوِيةٍ ، فلما نظر إليه نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم ضَحِكَ ، قال : « هل شَعَرْت أنها قد حُرِّمَتْ بعدك » ، قال يا رسول الله : أفلا أبيعُها فأنتفِعُ بثمنِها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لعن الله اليهود انطلقوا إلى ما حرِّم عليهم من شحوم البقر والغنم فأذابُوهُ فجعلوه ثمناً لهُ ، فباعوا به ما يأكلون ، وإن الخمرَ حرام وثمنها حرام ، وإن الخمر حرام وثمنها حرام ، وإن الخمر حرام وثمنها حرام » .

(١) أى أفرغها على الأرض .
(٢) هى ما يحمل فيه الماء ، وسميت راوية لأنها تروى صاحبها ومن معه .
(٣) أى بطحاء مكة وهو مسيل واديها .
(٤) أى تميم الدارى رضى الله عنه .

الربا

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

« أهدى هذا البحث إلى طلبة كلية الحقوق بدمشق »

(٢)

أيها الأبناء الأعزة :

١١ — بيّنا فى الجزء السابق من بحثنا أن الربا الذى ثبت تحريمه قطعاً بدليل لاشبهة فيه هو الربا الذى جاء القرآن الكريم بتحريمه ، ونطقت الآيات بأن التوبة منه أن يكون للدائن رأس المال فقط من غير أن يَظلم ولا أن يُظلم ، وأجمع العلماء على أن ربا القرآن هو ربا النسيئة ، وهو الذى تكون الزيادة فيه فى نظير الأجل طال أو قصر ، وقلّت الزيادة أو كثرت ، فإن ذلك النوع من الربا هو الذى أجمع العلماء على تحريمه ، ومنكر التحريم فيه منكر لأمر عرف من الدين بالضرورة ، وثبت فيه ثبوتاً قاطعاً لاشك فيه ؛ ولذا قال فيه أحمد رضى الله عنه ، وهو إمام السُّنة وناقل علم السلف الصالح كله : إنه الربا الذى لاشك فيه ، ولم يختلف فيه أحد .

١٢ — وإن تحريم ذلك النوع من الربا هو الفطرة ، وهو النظام الاقتصادى السليم ؛ أما كونه الفطرة فقد ذكره أرسطو فى كتابه « السياسة » فقدجاء فيه مانصه : « كان حقاً علينا أن نستنكر الربا ، لأنه طريقة كسب تولدت عن النقد نفسه ، وهى تمنعه مما وجد لأجله ؛ لأن النقد لاينبغى أن يكون إلا للمعاوضة والربح منها . والفائدة أو الربا هى نقد تولد عن نقد . وهذا النوع من الكسب هومن بين ضروب الكسب كلها الكسب المضاد للطبع » .

فأرسطو يرى أن الربا كسب مضاد للفطرة المستقيمة ؛ لأن النقود إنما خلقت لتكون مقاييس للسلع وضوابط لقيمها ، وطريقا لجلبها ، وليست وحدها منتجة شيئا ؛ لأن النقد لايلد النقد ؛ ولأن كونها وحدة للتقدير يجعل الأصل فيها ألا يغير الزمان ولا المكان فى قيمتها ، فليست كسائر الأموال ، يغير قيمتها الزمان والمكان ، وذلك على حسب الأصل فيها ، وإن تغير ذلك الأصل كان ذلك لاضطراب فى الميزان الاقتصادى بالتضخم أو بنقيضه ، وإذا كان الأصل ألا تتغير قيمتها ، لأنها وحدة تقدير القيم وميزانها فإن الكسب فيها لايتأتى عن طريق الاتجار . وهى ليست نامية بذاتها ، حتى يقال إن النقد يلد النقد

١٣ — وأما كون تحريم الربا هو النظام الاقتصادى المعقول ، فهو أمر بين ؛ لأن الناس بالنسبة لرأس المال على ثلاث طوائف : طائفة جعلت لرأس المال سلطاناً كاملا لاحدّ يحده ، ولا نهاية ينتهى عندها ، فهو ينتج بعمل وبغير عمل ، وينتج مع التعرض للكسب والخسارة ومن غير تعرض للخسارة مع المكسب دائما ؛ فلرأس المال الغنم الدائم . وهؤلاء هم الربويون الذين تسيطر حضارتهم على جزء كبير من العالم ، وهى حضارة تستمد نظامها الاقتصادى من الفكر اليهودى ، ويسيطر عليها اليهود سيطرة مالية فى كل النواحى التى تستقر فيها هذه الحضارة .

والطائفة الثانية طائفة الاشتراكيين الذين ضيّقوا من سلطان رأس المال بعض التضييق ، وجعلوا الأمة مالكة لينابيع المال التى تدر الدر الوفير ، من غير عمل كثير ، وأشركوا الأمة أيضاً فى بعض ماينتجه رأس المال الخاص من غير أن يمحوه ولا يحاربوه ولم يتعرضوا للربا بسوء .



والطائفة الثالثة هى التى حاربت رأس المال وقضت عليه ، وقطعت كل ثمراته ، فلا ربا ولا ما يشبهه ، ولا اقتناء لشىء إلا ما يفى بالحاجات الأصلية .

١٤ — هذه نظرات الحضارات القائمة إلى رأس المال ؛ أما الشريعة الإسلامية ـ ككل الديانات السماوية التى لم يعرها التحريف والتبديل ـ فقد احترمت رأس المال ، واحترمت العمل ، وجعلت على الكسب تبعات وتكليفات ، ولم تجعله غنما لامغرم فيه ؛ ولم تجعله سائغا من غير عمل ينتجه ، أو تعرضا لخسارة تسوغه ، ولذلك حرّمت الربا ؛ لأنه يجعل للشخص كسبا من غير تعرّض للخسارة قط ؛ ومن غير عمل قط ؛ وبذلك كان ناس قد عكفوا فى بيوتهم أوحوانيتهم يتصيدون ذوى الحاجات ، أو الذين يريدون أن يشبعوا أنفسهم بتجارات ليست عندهم أسبابها ؛ فإذا وقع فى أيديهم صيد من هؤلاء أقرضوه بربا واستوثقوا لديونهم برهون مقبوضة ، أو فى حكم المقبوضة ، هى فى قيمتها أضعاف الديون ، وهكذا يكونون الرابحين دائما ، ولا لخسارة يتعرضون لها .

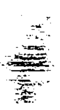
فالإسلام حارب أولئك القاعدين الذين يعيثون فى الأرض فسادا ؛ وكان بذلك رحيما بالناس ولم يعتبر الكسب غنيمة باردة دائماً ، لا تأتى من غير كدح ، أو تأتى من غير تعرض للخسارة .

١٥ — وإن الربا هو السبب فى خراب البيوت المالية والشركات المنتجة عند اضطراب الأحوال بأزمات كاسدة ، أو بتضخم شديد ؛ فإنه عند الكساد تعجز الشركات المنتجة عن سداد ما عليها من ديون تكاثف الربا فيها ، ولا يكون كسبها مما تنتج معادلا للربا الذى يطلب ، فيكون العلاج خفض الديون وذهاب الربا كله أو جله ،

كما فعل الرئيس روزفلت سنة ١٩٣٤ فى أزمة أمريكا الجائحة ، وكما فعلت مصر فى التسويات للديون العقارية ، فإن العلاج كان بإسقاط الربا كله أو جله .

فتلك الحضارة الربوية عند ما يطم سيل الربا ، وتتفاقم نتائجه تعالج الحال بإسقاطه كله أو بعضه الكثير . وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد حرمته تحريماً باتاً قاطعاً لا هوادة فيه ؛ فإن ذلك هو الرحمة التى تعم ولا تخص ، وتلك هى شريعة اللطيف الخبير .

١٦ — كان ربا النسيئة حراماً حرمة مجمعاً عليها من غير أى خلاف فيها كما قلنا ، وقد أعظم الفرية على هذا الشرع الشريف من قال إن فى تحريم ربا النسيئة أى خلاف ، أو أن فى معناه أى خلاف ؛ فهو عند الجميع زيادة فى الدين فى نظير الأجل ، سواء أكان ذلك باشتراط بالنص أو بالعرف أو من غير اشتراط ، وقد نقلنا لك النصوص الدالة على ذلك من الجصاص وغيره .

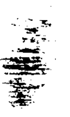


وإن ذلك الربا المحرم فى الشريعة بالإجماع تعللت به فى الماضى النفوس التى تطمع فى المال من غير حله ، وكان الأقدمون يحترمون النصوص الشرعية والحقائق الإسلامية ، فلم يتجهوا إلى العبث بها ، أو تأويل النصوص تأويلا بعيداً عن معناها ومرماها المجمع عليه ، ولكن الذين طمعوا فى الربا تحايلوا فى أعمالهم ، ولم يعبثوا بالنصوص الخالدة ، فكان إثمهم مقصورا ، ولم يتعدهم إلى الأخلاف من بعدهم ؛ فقد اخترعوا ما يسمى ببيع العينة ليأكلوا الربا عن طريقه ، وذلك بأن يوسط الدائن والمدين عند التداين شيئاً يجرى فيه البيع الصورى ، فيبيع الدائن للمدين ذلك الشىء بمائة مؤجلة ، فيكون الثمن فى ذمة المشترى وهو المدين ، ثم يبيع المدين هذا الشىء نفسه للدائن بثمانين مثلا معجلة ، وينتهى ذلك التعاقد الآثم بأن المدين أصبح مطالباً بمائة وما تسلم إلا ثمانين والفرق هو فى نظير التأجيل ، وبذلك يحتالون ليستحلوا الربا ، ويصح عقد البيع فى نظر الإسلام ، وإنه لينطبق عليهم تمام الانطباق قول الله تعالى فى إخوان لهم من المنافقين : « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » ولقد شاع بيع العينة فى عهد الأئمة المجتهدين ، فقد روى عن محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة أنه قال فى بيع العينة : إنه عندى أثقل من الجبال قد اخترعه أكلة الربا .

١٧ — تلك كانت حيلة الربويين السابقين يحتالون على الشرع الشريف ، من غير أن يؤولوا النصوص أو يعبثوا بها فكانوا أفضل من الربويين من المسلمين فى هذا الزمان ، إن كان فى الربويين فاضل ومفضول ، أو بالأحرى إذا كان الشر طبقات ؛

لأن الأولين لم يبيحوا لأنفسهم الربا واعتقدوه حراما ، ولكنهم تحايلوا ليسوغوا لأنفسهم بعضاً منه زاعمين أن العقد مادام قد استوفى شروط الصحة الظاهرة ، فقد زالت الخطيئة « ذلك قولهم بأفواههم » أما الربويون فى عصرنا فقد تخطوا الحدود ؛ وساروا فى طريق أوله إثم وآخره مروق من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

إن الربويين فى هذا العصر آمنوا بالمدنية الغربية الإيمان كله ، ولا أقول إنهم كفروا بالإسلام ، فإنى لست ممن يرمون الناس بالكفر ماداموا يقولون إنهم مسلمون ، ولكن أقول إنهم أرادوا الإسلام خاضعاً لما آمنوا به ، فإن قلت لهم الإسلام حرم الزنى ، قالوا لك إن أوربا نظمت الزنى على شكل كذا وكذا ، وإن قلت لهم إن الإسلام حرم الخمر ، قالوا إن أهل أوربا مضطرون للخمر ، والإسلام لم يقل لاتشربوا الخمر ولكن قال : « فاجتنبوه لعلكم تفلحون » وإن قلت لهم إن قوله تعالى اجتنبوه وما أعقبها أقوى دلالات فى النهى ، هزوا أكتافهم وأداروا ظهورهم ، وقالوا ولماذا لم يقل «لاتشربوا» وهكذا يصمون آذانهم عن سماع الحق ، ويجهلون أنفسهم ، وإن قلت لهم القرآن حرم الربا ، قالوا وماذا نصنع فى هذه المصارف أتغلق أبوابها ؟ سمعنا الشيخ فلانا يحل فوائد المصارف ، وقيل عن الشيخ عبده إنه أحلها ، وهكذا وهكذا . .



١٨ — ولو اقتصر البلاء على هؤلاء فى أمر الربا لهان الخطب ، فإن الناس لايأبهون لقولهم فى الإسلام وهم يعلمون ، فليهرفوا بما لم يعرفوا ماداموا يريدون أن يتبع الحق أهواءهم ، كما قال القرآن من قبل فى المشركين وغيرهم من الكافرين الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

ولكن الداهية الكارثة أن بعض الذين يتسمون بسمة العلماء فى الإسلام ، ولهم قول مسموع فيه ، ومن الناس من يتبعهم ، الكارثة الكبرى أن يقول هؤلاء محلين فوائد المصارف على أنها لايحرمها الدين ، ولاتدخل فى عموم كلمة الربا الواردة فى القرآن ، فلا حول ولاقوة إلا بالله .

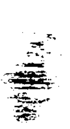
١٩ — ولعلكم أيها الأبناء الأعزة تسائلون أنفسكم على أى دليل بنوا تخصيصهم ؟ وعلى أى دعامة أقاموا أقوالهم ! وإنى بعون الله أرجو أن نشفى صدوركم بإجابتكم فيما تطلبون . . . .

يبتدئون فيقولون إن كلمة الربا ليست من الكلمات التى هى نص فيما تشتمل عليه بدليل أن عمر رضى الله عنه — ومكانه فى الإسلام مكانه — خطب الناس فقال : « ثلاث وددت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهى إليه : الحد

والكلالة وأبواب من الربا » وروى عنه أنه قال : « إنا والله لاندرى لعلنا نأمركم بأمور لاتصلح لكم ، ولعلنا نهاكم عن أمور تصلح لكم ، وإنه كان من آخر القرآن نزولا آيات الربا ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبينه فدعوا ماير يبكم إلى مالا يريبكم » .

تعلقوا بمثل هذه الأقوال المروية عن بعض الصحابة المجتهدين التى تدل على أن الربا لم يكن واضحا كل الوضوح ؛ فليس النص على نوع منه بأن التحريم فيه قاطع أمرلايخلو من مجازفة فى الحكم .

٢٠ — وإنا نجيبهم عن هذا القول بأن عمر رضى الله ماجهل كل أنواع الربا ، بل خفى عليه رضى الله عنه أبواب منه ، وقد يقال إن النص الثانى يدل على أنه قد خفى عليه كله ، وهذا كلام غير صحيح ؛ لأن من المقرر الثابت أنه إذا اجتمع الخاص والعام حمل العام على الخاص ، فإذا كان فى النص الثانى عموم فهو محمول على الخصوص فى الأول . على أن النص يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبين الربا الذى فى الآية الكريمة ؛ وفى الحقيقة أنه لايحتاج إلى بيان ، لأنه ربا الجاهلية ؛ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم كما روى فى الصحاح فى خطبة الوداع : « إلا وإن ربا الجاهلية موضوع » ومحال أن يكون مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يجهل ربا الجاهلية . وكل تفسير لقوله يؤدى إلى ذلك هو تفسير باطل ، ليس له سند من التاريخ ، فإنه كان من المعروفين بالعلم بأنساب العرب وأحوالهم فى الجاهلية .



على أن عمر رضى الله عنه ساق هذا القول ليمتنعوا عن كل ما يشك فيه أنه من الربا ، ولذا قال فى رواية أخرى « دعوا الربا والريبة » فهل دعوا إلى ما دعا إليه ، أم ساقوه ليحللوا ما حرم القرآن .

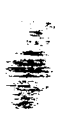
والخلاصة أنه لا التباس قط فى النص القرآنى ، لأن ربا الجاهلية كان معروفا غير مجهول من أحد الصحابة ؛ انظر إلى قول الجصاص الذى نقلناه فى العدد السابق إذ يقول (إنه معلوم أن ربا الجاهلية إنما كان قرضاً مؤجلا بزيادة مشروطة ، فكانت الزيادة بدلا من الأجل فأبطله الله تعالى وحرمه وقال : « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »)(١) فإذا كان لم يبين ربا الآية فلأنه معلوم من غير بيان ، وإنما موضع القول والاختلاف هو فى الربا الذى ثبت فى السنة ، وهو الذى سميناه ربا البيوع ، كما سنبين إن شاء الله تعالى .

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٤٦٧ طبع الأستانة .

ومن الغريب أنا نجد أولئك الذين يريدون أن يسوغوا الفوائد المصرفية على أى صورة كانت يدعون أن الإجماع لم ينعقد على تحريم ربا النسيئة الذى هو ربا القرآن ليعبثوا بالنصوص كما يشاءون ، فليأتوا بأحد أباحه لنقرر نقض الإجماع به ، ولكنهم يريدون أن يحلوا ما حرم الله تمكينا لتلك المدنية التى زلزلت أركانها ، وحسبهم ذلك وكفى .

٢١ — ويقولون فى تسويغ الربا إن الربا الذى حرمه الإسلام هو الفائدة التى تكون على دين أخذ للاستهلاك ، لا للاستغلال ، فيجعلون مناط التحريم ليس تنظيم الانتفاع برأس المال بحيث يتعرض المنتفع للخسارة ، كما يشارك فى الربح ، بل ظن أولئك أو ادعوا من غير ظن أن السبب فى التحريم هو المروءة والأخلاق ، فليس من المروءة والأخلاق أن رجلا يقترض ليأكل أو ليلبس ، أو ليجهز منه متاع ابنته لزواجها ، فتأخذ منه فائدة ، ولكن لا ينافى الأخلاق الفاضلة ، ولا المروءة أن تقرض رجلا فيستغل ما تقرضه ، ويكسب منه ، فتشركه فى هذا الكسب بتلك الفائدة المحدودة ، وربما كان الكسب كبيراً ، وإن العدل أن تشاركه فى كسبه .



ونجيب هؤلاء بأن تحريم الربا تنظيم اقتصادى لرأس المال المنتفع ليعمل الناس جميعاً ، ومن لم يستطع العمل يقدم المال لمن يعمل على أن يكون الربح بينهما والخسارة عليهما وهذا هو العدل ، فليس العدل أن يكون لأحدهما الغنم دائماً من غير أن يتعرض للخسارة مطلقا ، فهو يأخذ فائدته ، ولو لم يربح الآخر ، بل لحقته الخسارة .

٢٢ — ولنترك الكلام فى العلة لنتجه إلى النصوص ، فهل نص الآية لا يشمل إلا الفوائد التى تؤخذ على الديون التى تكون للاستهلاك ؟ الجواب عن ذلك أن النص عام ، لأن الربا يشمل النوعين ، لأنك إن فسرته بمعنى الزيادة فكل زيادة على رأس المال تعد ربا ، كما هو نص قوله تعالى : « فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » وإن فسرت كلمة الربا بأن المراد بها ربا الجاهلية ، فلا دليل مطلقا على أن ربا الجاهلية كان للاستهلاك ، ولم يكن للاستغلال ، بل الفرض الذى يجد الباحث مستنداً له من التاريخ هو أن القصد كان للاستغلال ، فإن أحوال العرب ومكان مكة ، واتجار قريش كل ذلك يسند هذا الفرض ، وهو أن القرض كان للاستغلال ، ولم يكن للاستهلاك .

وذلك لأن العرب كانت حياتهم أولية ساذجة ، فلم تكن متسعة متنوعة الحاجات ، والقرض للاستهلاك ، إنما يكون لمن تنوعت حاجاته وكثرت مطالبه ، وتباطأت عن

وفائها فى وقت معين موارده أما من يكون قليل المطالب غير متنوعة حاجاته ، فلا يقترض ، إن العرب كان طعامهم التمر واللبن ويندر من لا يجدهما ، ومن لا يجدهما يجد من الكرم العربى ما يوسع عليه من غير بدل قليل أو كثير . فهل يتصور عاقل أن العباس بن عبد المطلب يجيئه محتاج إلى القوت أو اللباس ، فلا يقرضه إلا بربا ، ومن المعروف أنه كان من المرابين فى الجاهلية ؟ ولذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب » .

فهل كان العباس يقرض طالب قوت ، أو كساء بالربا ؟ إن ذلك بعيد ، بل يكاد يكون فى حكم المستحيل ؛ إنما يقرض العباس من يستغل ليشركه فى كسبه بالربا .

٢٣ — وفوق ذلك فإن مكان مكة يجعل قريشاً من التجار ، وكانوا فعلا كذلك وذلك لأن الاتجار بين الفرس والرومان كان عن طريق البر ، ولما اشتدت الحروب بينهما قبيل الإسلام كان الاتجار بينهما عن طريق اليمن والشام ، ومكة كانت فى الوسط بينهما ، فكان القرشيون ينقلون بضائع فارس من اليمن إلى الشام ، وبضائع الروم من الشام إلى اليمن ، ولذلك كانت لهم رحلتان إحداهما إلى اليمن شتاء ، والأخرى إلى الشام صيفاً ؛ وهذا قوله تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وإذا كان قريش متجرين ينتجعون الشام واليمن للاتجار فلا بد أن يتجر الشخص بماله وبنفسه ، أو أن يتجر بمال غيره عن طريق المضاربة بأن يكون الربح بينهما والغرم على صاحب رأس المال إن كانت خسارة ، أو عن طريق الربا بأن يأخذ شخص مالا من غيره يتجر فيه على أن يكون له فائدة محدودة قلت أو كثرت .

وإن الوقائع التاريخية تؤيد ذلك ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما حاول أن يهاجم عير قريش الذاهبة إلى الشام قال الرواة إنه كان فيها أموال قريش كلها ، ليس منهم إلا من أرسل مالا يتجر فيه ، ولا شك أن بعضهم كان بطريق المضاربة التى أقرها الإسلام من بعد ، وبعضهم كان بطريق الربا الذى لا يشترك فيه المقرض فى الخسارة إن كانت خسارة .

وإذا كانت هذه هى الوقائع التاريخية ، وقد كان العباس وغيره من أكبر تجار العرب ، وأصحاب رءوس المال فلابد أنهم كانوا يتجرون بأنفسهم أحياناً ، ويدفعون المال ربا أحياناً ؟

فالربا كان للاستغلال ، وفرض أنه كان للاستهلاك فقط فرض باطل ، فوق أن النص عام يشمل الحالين ، والمعنى واضح بيناه ، وهو أن الإسلام يريد نظاماً اقتصاديا لا يعمل رأس المال وحده ، أو لا يعمل من غير تعرض للخسارة .

٢٤ — ومن الغريب أن أولئك الذين أرادوا أن يحلوا الربا الذى حرمه القرآن تمكينا لذلك الاقتصاد اليهودى يقولون إن الفقهاء أجمعوا على جواز أن يكون البيع المؤجل بسعر أغلى من السعر المعجل ؛ ويقولون إن هذه الزيادة فى نظير الأجل ، بل لقد قالوا : جاء فى ابن عابدين أنه إذا بيع الشىء بثمن مؤجل ثم وجب الأداء معجلا فإنه ينقص من الثمن بمقدار التعجيل ، وبذلك يتبين أن الفقهاء أباحوا الزيادة فى نظير الأجل وأى فرق بينها وبين الربا المحرّم .

ونقول لهم مقالة الله لمن اعترض بمثل اعتراضهم إذ قالوا إنما البيع مثل الربا ، فرد الله عليه سبحانه بقوله : «أحلّ الله البيع وحرم الربا» .

فأولئك الذين يحكون أقوال الفقهاء لا يعترضون عليهم إنما يعترضون على ربهم ، ولكى نريحهم ، أو بالأحرى نريح الناس من إصرارهم ، ولجاجتهم فيما يقولون ، نقول إن المبيع سلعة لها منافع ولها غلات ، وإن كانت مما ينتفع به باستهلاكه فإن أسعارها تختلف باختلاف الأزمان ، فهى فى زمن بسعر ، وفى غيره بسعر ، فإذا احتاط البائع لنفسه فباعها بثمن مؤجل مرتفع ، ومعجل غير مرتفع ، فلأن موضوع المعاملة يقبل الارتفاع والانخفاض فى الأزمان وله غلات بنفسه ، أما النقود فهى وحدة التقدير ؛ فالمفروض ألا يؤثر فيها الزمان . وينبغى أن تكون كذلك دائما ؛ لأنها ليست سلعا ترتفع قيمتها وتنخفض .

٢٥ — وعلى ذلك يخرّج قول من يقول إنه إذا أدى الثمن المؤجل معجلا نقص منه بمقدار ما يعادل الأجل ؛ فإن الأساس هو السلعة لا النقد المجرد . على أن هذا القول لم نجده إلا فى الدر المختار نسبه لبعض المتأخرين ، فقد جاء فيه فى باب المرابحة (وهى أن يبيع الشىء بكسب بنسبة معينة من الثمن الأصلى) جاء فى هذا الباب أنه إذا كان الثمن مؤجلا ومات المشترى فى أثناء المدة فإنه يحل الثمن ويجب أداؤه فوراً ، وينقص من الثمن ما يقابل الجزء الباقى من المدة : وجاء فى ابن عابدين أن المتأخرين من العلماء أفتوا به ، وأن المولى أبا السعود ارتضاه ، ولعل أبا السعود العمارى ارتضاه لأنه كان يسهل على سليمان القانونى ما يريد من إدخال الأفكار الأوربية فى بلاده ، ولذا لم يعتبر علماء الأتراك فتاويه ، وقد وجدنا للمتقدمين يقولون عكس هذا القول ، فهذا أبو بكر

الرازى يقول عن النقص فى نظير التعجيل فى تفسيره : « إذا كان عليه دين عليه ألف درهم مؤجلة ، فوضع عنه على أن يعجله فإنما جعل الحط بإزاء الأجل ، فكان فى معنى الربا الذى نص على تحريمه » .

٢٦ — لامساغ لأحد يؤمن بالله ورسوله ، ويجعل لحكمهما المقام الأعلى أن يقول إن شيئا من فائدة المصارف حلال ، ولقد وجدنا بعض العلماء يفتح لهم نافذة أخرى ، وهى نافذة الضرورة ، فقد زعموا أن الاقتصاد فى البلاد الإسلامية قام على أساس هذه الفائدة ، وليس لنا أن نفتات على شرع الله ، فنحل ما حرم ، ولكن نحن فى حال ضرورة اقتصادية ، ومن المقررات الفقهية أن الضرورات تبيح المحظورات . فإن الفائدة تباح للضرورة . ذلك نظر جديد لاقى رواجاً ، وقبله كثيرون من المتشددين الذين لا يتساهلون .

فلننظر فى هذا الأمر أهو مسوغ لهذا الحرام ؟



إن من المقررات أن الضرورات تبيح المحظورات ، ولقد قال الفقهاء إن الإسلام منع الحرج فى الدين ، ولذلك قسموا المحرمات إلى قسمين محرم لذاته لايباح إلا للضرورة ، ومحرم لغيره كرؤية جسم المرأة فإنه يحرم لأنه ذريعة إلى الزنى . والمحرم لغيره يباح للحاجة كعلاج أو نحوه ، والحاجة ما يمكن أن يعيش الإنسان من غيره ، ولكن يكون فى حرج وضيق .

أما الضرورة فهى ما يترتب على تركه تلف النفس أو عضو من أعضاء الجسم ، ومن أى نوع حاجة الاقتصاد الإسلامى إلى الربا ؟ مع العلم بأن ربا النسيئة هو الربا الجلى وهو محرم لذاته ؛ لا لغيره ، فهو لايباح للحاجة ، إنما يباح فقط للضرورة .

أحاجة الاقتصاد الإسلامى إلى الربا من الضرورة التى تتلف النفس إن لم يؤخذ به ، أم من قبيل الحاجة ؟ . ولكى نعرف معنى الضرورة نروى الحديث النبوى الشريف فى معناه ، فقد روى أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : إنا نكون بالأرض تصيبنا المخمصة فمتى تحل لنا الميتة ؟ قال متى لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تجدوا بها بقلا . فهو لم يبح الميتة إلا إذا لم يجدوا طعاماً فى الصباح ، ولا فى المساء ، ولم يجدوا شيئاً فى الأرض يأكلونه .

فهل الحاجة إلى الربا من هذا الصنف ، وهل غلقت كل أبواب الإنتاج الحلال ، أو سلكناها كلها ولا نجد مع ذلك ما يسد رمقنا إلا الربا ؟ وهل حيل بيننا وبين الحلال ، فلا نجد إلا الربا سبيلا لسد الجوع ؟ اللهم : لا .

٢٧ — إن الفقهاء قد قرروا أنه لا يؤخذ من المحرمات التى تباح للضرورة إلا ما يسد الرمق ، وقد توسع مالك فأجاز الشبع والتزود عند الضرورة ، ومع ذلك فإن ذلك الإمام الجليل يقرر أنه لو طبق الحرام الأرض أو ناحية منها يعسر الانتقال ، وانسدت طرق المكاسب الطيبة ، ومست الحاجة الزيادة عن سد الرمق ، فإنه يسوغ لآحاد الناس إذا لم يستطيعوا تغيير الحال وتعذر الانتقال إلى أرض تقام فيها الشريعة ، ويسهل الكسب الحلال أن ينالوا كارهين بعض هذه المكاسب الخبيثة[1] .

فهل نحن الآن قد انسدت أمامنا كل طرق الكسب الحلال ، ولا يمكننا التغيير حتى نستبيح الربا باسم الضرورة ؟ اللهم : لا .

إن الحلال والحرام بين ، وإنما قبل أن نستحل الربا علينا أن نعمل على تغيير هذه الأوضاع الاقتصادية التى قامت عليه ، وأن نفتح باب الكسب الحلال على مصراعيه ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

« يتبع »



من معانى الوضوء .

« ... فإذا قمت إلى وضوئك فأيقن فى نفسك واعزم فى خاطرك على أن فى هذا الماء سراً روحانياً من أسرار الغيب والحياة وأنه رمز للسماء عندك وأنك إنما تتطهر به من ظلمات نفسك التى امتدت على أطرافك ؛ ثم سم الله تعالى مفيضاً اسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً ، ثم تمثل أنك غسلت يديك مما فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا وأنك آخذ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مسحة سماوية تسبغها على كل أطرافك ليشعر بها جسمك وعقلك ، وأنك بهذه المسحة السماوية تستقبل الله فى صلاتك سماوياً لا أرضياً » .

« الرافعى »

(١) الاعتصام للشاطبى ج ٢ ص ٣٠٠ .

مثل الإنسانية الأعلى

(٢)

لأبى نعمان المهاجر

« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » .

من هذه الآية الكريمة فى تقرير المثل الأعلى للسمو الإنسانى ، نتبين أنه لا يمكن أن تجد الإنسانية وسيلة لهدايتها وإرشادها فى طريق الحياة الشائك أفضل من هذه الوسيلة الإلهية الثابتة التى اختارها الله لإنقاذ البشر ، والتى تتلخص فى الأربعة العناصر المذكورة وهى : الخشية من الله ، والإيمان بآياته ، والتنزه عن الشرك ، واستشعار الخوف من لقائه فى الآخرة .

ومما لا ريب فيه أن هذه العناصر الأربعة إذا اجتمعت فى قلوب المؤمنين فإنها تعطيهم من المناعة ضد الشر والعدوان ، وفساد الأخلاق ، كما تعطيهم من الاستعداد للخير والسبق إليه مالا تعطيهم أية وسيلة أخرى من وسائل التربية التى وضعها الفلاسفة الماديون ؛ لأن هذه الوسيلة تضع فى أنفسهم رقابة داخلية دائمة لا تفارقهم فى أية لحظة من حياتهم .

* * *

إنها جذوة مقدسة تضىء فى جوانحهم ، وتثير فيهم أكرم المواهب ، وأنبل العواطف ، وأشرف الأخلاق ، وتجعل منهم هداة الإنسانية ورحماءها ومثلها الأعلى وصفوتها المنتخبة المنتقاة : « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » .

ومَن يك وازعه روحه ... يجد نظرة الله فى سره
ومن أمن الشر من نفسه ... فليس يرى الشر من غيره

ولما كان من شأن هذه الرقابة الداخلية أن تكون دائمة ، وغير منفكة عن الإنسان وكان استشعار الخوف من الله ، والإشفاق من لقائه أمراً قد تشتد وطأته على بعض القلوب ويعظم خطبه عليها ، وقد يتمادى ويستفحل حتى يجعلها فى حالة من الوله والفزع يعوقها عن الاضطلاع بمهمات الحياة التى لا بد منها كما هو مشاهد فى بعض المتصوفة ، جاءت

الآية التالية تحدد المقدار اللازم من الشعور بالخوف ، وتؤمِّن روع المؤمنين وتخفف عنهم :

« ولا نكلف نفساً إلا وسعها ، ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون »

فالإشفاق من الله ومن لقائه — وإن كان يجب أن يكون رقيباً عتيداً على المؤمنين فى طوايا ضمائرهم — إلا أنه يجب أن يكون إلى جانبه الإيمان بعدالة الله ورحمته ، وبأنه لا يكلف النفس فوق وسعها وطاقتها ، وبأن لديه كتاب اللوح المحفوظ الذى يسجل على بنى الإنسان أعمال الخير والشر ، ولا ينطق إلا بالحق ولا يظلم أحداً .

فهذه الهداية الإلهية السامية التى أكرم الله بها بنى الإنسان وأرادهم على الوصول عن طريقها إلى أسمى مراتب السعادة والرفعة ، وبعث بها أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين لا يمكن أن تحدث أى أثر فى الجاحدين بها ؛ لأنه مختوم على قلوبهم فلا يؤثر فيها منطق الحق ، ولا آياته ولا بيناته : « بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون » فقد احتلت نفوسهم ضلالات صرفتها عن حظها من الهداية والرشد ومن طبيعة النفس أنها لا تستطيع الاتجاه فى وقت واحد إلى وجهتين متناقضتين ؛ فإذا هى قد اتجهت إلى وجهة معينة اتجاها كليا صادقا لم تعد قادرة حينئذ على الالتفات إلى وجهة أخرى .



لهذا فإن الكفار الذين كانوا يستمعون إلى التنزيل ، وينظرون إلى طلعة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام ، لم يكونوا يتأثرون بذلك ولا يحسون ولا يشعرون لأن عقائدهم الوثنية ، وحياتهم المترفة الفاجرة ، كانت قد استبدت بما عندهم من القدرة على فهم الحق والرجوع إليه : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون » .

* * *

ومن طبيعة هذه النفوس التى ران عليها الضلال أنها لا تفيق من غمرتها الساهية اللاهية إلا إذا أصيبت بهزة تزلزل كيانها وتمزق غشاوتها وتريها وجه الحق طالعاً عليها من آفاق السدفة الحالكة ، ولكن وجه الحق هذا سرعان ما يحتجب عنها إذا زايلتها المصيبة وانفرجت عنها ، والنفوس التى تتصف بهذه الصفة : صفة التمرد فى حال النعمة ، والضراعة فى إبان الشدة ، هى نفوس معرقة فى اللؤم والضلال لا يقبل الله لها توبة ولا يسمع لها دعاء ، لهذا فإن الله لما أخذ المترفين الجاحدين من الكفار يوم بدر راحوا يجأرون إلى الله ويستغيثون ، ولكنه سبحانه يعلم أنه لم يحملهم على ضراعتهم إلا الإحساس

بعذاب الله الواقع بهم ، وأنهم لو فسح فى آجالهم ، وامتد بهم الزمن لرجعوا إلى ما كانوا عليه ؛ لهذا خاطبهم بقوله : « لا تجأروا اليوم ، إنكم منا لا تنصرون ، قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامراً تهجرون » .

الضمير فى « به » راجع إلى البيت الحرام ، وقد كان المشركون يفخرون على الناس بأنهم حراس البيت ، وأنهم أهله وحفظته ، فلذلك استكبروا عن الإيمان بالحق ، وأخذوا يتجمعون فى بيت الله ليبتعدوا عن هداية الله ، ويصدوا عن سبيله .

* * *

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى التساؤل عن سبب إعراض الكفار عن دعوة الإسلام فذكرت أربعة أسباب على نسق الاستفهام التقريرى : « أفلم يدبروا القول ، أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة » ؟ .

أى : فهل السبب أنهم لم يدبروا القرآن ؟ — لا ؛ فقد تدبروه ، أم أنه جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين ؟ — لا ؛ فإنما جاءهم ما كان قد جاء مَن قبلهم ، أم أنهم لم يعرفوا رسولهم ؟ — لا ؛ فقد عرفوه وعرفوا صدقه ، أم أنهم قالوا بإن به جنة ؟ — لا ؛ فإنهم وإن قالوا ذلك فإنما قالوه على طريقة الجدل والمكابرة وهم يعرفون أن ماقالوه باطل ليس له أساس من الواقع .

فهذه كلها ليست هىَ أسباب جحودهم ونكرانهم ، « بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » : أى أن السبب أنه جاءهم بالحق فى حين أن أكثرهم يكرهون هذا الحق ؛ والكراهية والحب كلاهما يعمى ويصم ويحول بين الإنسان وبين إدراك الحقائق على وجهها الصحيح : «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهم، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » .

صحابة الرسول

شمُّ العرانين أبطالٌ لَبوسُهُمُ ... من نسجِ داودَ فى الهَيْجا سرابيلُ
لَيْسوا مفاريحَ إن نالتْ رِماحُهُمُ ... قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا

« كعب بن زهير »

طبيعة المجتمع الإسلامى

للأستاذ سيد قطب

ما الذى يعنيه اصطلاح « المجتمع الإسلامى » ؟ هل لهذا المجتمع طابع معين ؟ وهل يندرج هذا الطابع أو يتفق مع شىء من النظم الاجتماعية الأخرى التى عرفتها البشرية ؟

إن هذا البحث كله هو الإجابة المفصلة على هذا السؤال . . ولكنى أحب هنا أن أستعجل القول فى إجمال ، لتقرير بعض الحقائق الأساسية عن طبيعة المجتمع الإسلامى ؛ وتجلية بعض الشبهات التى تعرض حتى لبعض الدعاة الإسلاميين ؛ ودحض بعض المفتريات التى يشيعها أعداء الفكرة الإسلامية ، أو الجاهلون الذين لا يعرفون عن الإسلام غير القشور .

لقد عرف المجتمع الغربى ألواناً شتى من النظم : عرف نظام الرق ، ونظام الإقطاع ، والنظام الرأسمالى ، والنظام الاشتراكى ، والنظام الشيوعى (على الأقل من الناحية الفلسفية التى لم يتم تحقيقها بعد فى واقع الحياة) .

فأى واحد من هذه النظم هو النظام الإسلامى ؟

إنه ليس واحداً منها بكل تأكيد ؛ وليس كذلك خليطاً من بعضها ، مهما يقع من التشابه أحياناً بين بعض أوضاعه ، وبعض أوضاع نظام أو أكثر من تلك النظم ، التى عرفتها البشرية فى تاريخها الطويل .

والعلة الرئيسية فى تفرد المجتمع الإسلامى بنظامه الخاص هى أنه مجتمع من صنع شريعة خاصة ، جاءت من لدن إله ؛ فهذه الشريعة التى وجدت كاملة منذ نشأتها غير متدرجة تدرجا تاريخيا . . هذه الشريعة هى التى أوجدت هذا المجتمع ؛ وأقامته على أسسه التى أرادها الله لعباده ، لا التى أرادها بعض هؤلاء العباد لبعض . وفى ظل هذه الشريعة تم نمو الجماعة الإسلامية ؛ ووجدت ارتباطات العمل والإنتاج والحكم ، وقواعد الآداب الفردية والاجتماعية ، ومبادىء السلوك ، وقوانين التعامل . . وسائر مقومات المجتمع الخاصة ، التى تحدد نوعه ، وترسم له طريق النمو والتطور .

ذلك على الضد من كل النظم الاجتماعية التى عرفتها أوروبا ؛ والتى نشأت نشوءاً ذاتياً وفق مقتضيات أرضية ، وثمرة للصراع الداخلى بين الطبقات ، والاحتكاك الطبيعى بين

علاقات الإنتاج القائمة وطرق الإنتاج المتجددة ، والمصالح المتعارضة بين التكتلات المتنوعة داخل جسم الجماعة البشرية .. مما يؤثر فى طبيعة القوانين وشكل الحكومات ، والأفكار الاجتماعية والأخلاقية السائدة ... الخ .

ومن ثم كانت جميع الأحكام والقوانين التى تنطبق على نشأة النظم الاجتماعية الغربية وتطورها غير منطبقة على المجتمع الإسلامى ؛ لاختلاف نشأته عن نشأة تلك النظم ، ولاختلاف القاعدة التى ترتكن عليها نشأته ، ولاختلاف القانون الذى يحكم نموه وتطوره .

إنه ليس المجتمع الإسلامى هو الذى صنع الشريعة ؛ إنما الشريعة هى التى صنعت المجتمع الإسلامى . هى التى حددت له سماته ومقوماته وهى التى وجهته وطورته . ولم تكن الشريعة مجرد استجابة للحاجات المحلية الموقوتة — كما هو الشأن فى التشريعات الأرضية — إنما كانت منهاجا إلهيا لتطور البشرية كلها وصياغتها صياغة معينة ، ودفعها إلى أوضاع معينة يتم بها تحقيق المجتمع الإسلامى المنشود .. وكلما انقضى الزمن وارتفعت درجة المعرفة البشرية كانت أقرب إلى تحقيق ذلك المجتمع المنشود .. وهذه السمة ذات أثر حاسم فى تحديد طبيعة المجتمع الإسلامى ، وتميزه عن جميع المجتمعات التى نشأت نشوءاً ذاتيا ، وأنشأت قوانينها وفق التغيرات المحدودة التى تنال حياتها يوما بعد يوم .



إن مهمة التشريع فى المجتمع الإسلامى — والتشريع هو المظهر البارز لتطور المجتمع لأنه تلبية مستمرة لهذا التطور — كانت دائما محكومة بأصل ثابت هو الشريعة الإسلامية — كما بينا فيما سبق — ومع أن الفقه الإسلامى كان تلبية مستمرة لبروز الحاجات فى المجتمع وتجدد الإرتباطات ، إلا أن نمو الفقه لم يكن طليقا ، لأنه كان دائما مشدوداً إلى ذلك الأصل الثابت ، محافظا على المبادىء الأساسية ، والسمات الأولية التى أراد الله لها الدوام فى المجتمع الإسلامى .

بذلك تقوم الشريعة دائما مقام السياج الواقى ، الذى يسمح للمجتمع الإسلامى بالنمو والتجدد ، ولكن داخل هذا السياج ، ووفق مقومات أصيلة ثابتة . وبذلك يظل الطابع الأصيل للمجتمع الإسلامى واضحا مميزا . بينما المجتمعات الغربية كان فى وسعها دائما أن تنمو وفق المؤثرات الواقعية ، غير متقيدة بأصل ثابت ؛ لأن المسيحية لم تكن يوما ما نظاما اجتماعيا ، وذلك لخلوها من الشريعة التى تتولى تنظيم المجتمع وفق نظرية محددة .

هذه هى القاعدة على وجه الإجمال . فإذا دلّ التتبع التاريخى للمجتمع الإسلامى على أن هذا المجتمع كان ينحرف أحيانا هنا أو هناك عن قاعدته الأساسية التى وضعتها له الشريعة الإسلامية ، متأثراً بمبادىء غريبة عليه ، أو منساقا مع التطورات البشرية

فى بعض رقاع الأرض ، أو بسبب مؤثرات محلية فى بعض الأقاليم التى انضمت إليه .. فإن هذا كله لا يجوز أن ينسينا أن تلك القاعدة الأساسية ظلت من القوة بحيث تشد إليها المجتمع الإسلامى شداً قويا ، وتطبعه بطابع خاص ، وتحدد طريقة نموه وتطوره ، وتجعل لهذا النمو والتطور تاريخا خاصا ، لا يندرج تحت تاريخ التطور الاجتماعى فى أوربا ، ولا تصدق عليه القوانين الاجتماعية التى تصدق هناك ... ومثل هذه الظاهرة ستظل ثابتة فى المستقبل — لأن المستقبل لا يمكن فصله عن الماضى — فليس هناك ما يحتم أن يسلك المجتمع الإسلامى فى المستقبل أى طريق تكون المجتمعات الغربية قد سلكته ؛ لأن سياج الشريعة الإسلامية سيظل يحرس هذا المجتمع ، مهما تكن عوامل المقاومة ، فإن أربعة عشر قرنا من الزمان لا يمكن محوها من تاريخ مجتمع ، ولا من ضمير أمة ، ولا من واقع حياة !



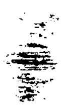
وبقى أن يسأل سائل : هل من الخير أن يظل نمو مجتمع من المجتمعات وتطوره مشدوداً إلى أصل ثابت ، على حين تتجدد حاجات الحياة وتتنوع ، وتختلف علاقات الإنتاج ، وتحتاج إلى مبادئ جديدة وشرائع جديدة ، تلبى ذلك التجدد ، وتماشى هذا الاختلاف ؟

والإجابة على هذا السؤال تقتضى معرفة طبيعة ذلك الأصل الثابت ومدى شموله لأصول الحياة الكبرى ، كما تقتضى موازنات موضوعية بين مبادئ ذلك الأصل الثابت التى أنشأت المجتمع الإسلامى ، وحددت له طرق النمو والتجدد ؛ والمبادئ الأخرى التى عرفتها البشرية حتى اليوم . فإذا اتضح أن مبادئ الإسلام موضوعة فى أصلها للاستمرار والتجدد ، وأنها ما تزال أفضل ، وما تزال أسبق ، وما تزال سائر النظم التى عرفتها البشرية متخلفة عنها أو ناقصة .. فالثبات لا يكون عندئذ عيباً إنما يكون ميزة لأنه يصبح ضمانة للارتفاع المستمر والتقدم المستمر ، وعدم الانتكاس والتردى مع الأهواء والنزوات والانحرافات . ولا عبرة بأن يكون القانون قد شرع اليوم أو قبل مائة عام ، إذا كان ما يزال سابقاً لخطو الجماعة التى تتعامل به ، وملبياً لحاجاتها الحاضرة فى يسر .

وهذه الموازنات الموضوعية بين النظام الاجتماعى الإسلامى وسائر النظم الاجتماعية الأخرى هى الطريقة الجدية الوحيدة التى تستحق الاحترام ، والتى تتفق مع المنطق العلمى . أما رفض ذلك النظام لمجرد أنه وضع — أول ما وضع قبل أربعة عشر قرناً — دون نظرة موضوعية فيه ، ودون موازنة موضوعية بينه وبين سواه ، فذلك

تصرف لا يستحق الاحترام العقلى ! ولا يركن إليه رجل يحترم عقله ، ويتكلم بغير طريقة الببغاوات !

والذى يأخذ فى موازنة موضوعية بين نظام المجتمع الإسلامى وسائر النظم الاجتماعية الأخرى يجد فى يسر أن ذلك الأصل الثابت أشد مرونة ، وأكثر طواعية ، وأكبر استعداداً لتلبية التطور الجديد فى حياة البشرية من كل النظم الجديدة التى تسمى « تقدمية » وهى حين تقاس إلى مبادئ الإسلام تبدو متخلفة فى عمومها ، كما يبدو فيها التناقض والنقص والتعسف ، بالقياس إلى تلك الشريعة المرنة الشاملة ، الملبية للفطرة فى غير تعسف ، والسابقة لخطو البشرية حتى هذه الأيام . . ومن ثم يسهل أن يقال : إنه من الخير قطعاً أن يكون للتطور الاجتماعى أصل ثابت يفيء إليه ، ما دام هذا الأصل الثابت لا يعوق النمو ، ولا يتعسف تصريف الأمور .



أما هذه الموازنات ذاتها فسأعرض لشئ منها فى مناسباتها المتفرقة فى فصول هذا البحث ؛ وإن كان حسبى أن أعرض مقومات المجتمع الإسلامى ، لتكون حاضرة للموازنة بينها وبين مقومات أى مجتمع آخر . فمقومات المجتمع الإسلامى هى المجهولة لدى الكثرة الضخمة ممن يسمحون لأنفسهم أن يجهلوها ، ثم يدعوا أنهم مثقفون . بل يسمحون لأنفسهم — دون معرفة — أن يحكموا بين شئ يعرفونه وشئ يجهلونه . وهم يدعون البحث العلمى !

إن الشريعة الإسلامية الثابتة لترتكز إلى عدة خصائص هى التى كفلت لها إنشاء مجتمع قابل للنمو والتجدد ولأن يكون دائماً قدرا على تحقيق مطالب البشرية المتجددة .

هذه الخصائص هى :

١ — أنها — وهى من صنع إله يعرف طبيعة خلقه — قد جاءت وفقاً للمقومات البشرية المشتركة العامة : أى وفقاً لأصول الفطرة البشرية . تلك الفطرة الثابتة التى لا تزول ولا تنمحى ، ولكنها تتحور وتنمو وتتشكل مع بقاء أصلها الثابت الذى منه تنمو . . وفى المقال السابق شرحت هذه الخاصية بما فيه الكفاية .

٢ — أنها جاءت فى صورة مبادئ كلية عامة ، تقبل التفريع والتطبيق فى الجزئيات المتجددة والأحوال المتغيرة ، دون أن تفارق أصولها الأولى ودون أن تصنع حلولا جديدية لمشكلات هى بطبيعتها متجددة .. وقد فصلنا القول فى هذا عند الكلام عن الفقه والشريعة فى المقال الماضى .

٣ — أن هذه المبادئ الكلية العامة جاءت شاملة لكل أصول الحياة الإنسانية وجوانبها جميعاً . فتناولت حياة الفرد ، وارتباطات الجماعة ، وأسس الدولة ، والعلاقات الدولية . كما تناولت حياة الإنسان فى كل مجالات النشاط ؛ ووضعت لها التشريعات التى تنظمها جنائيا ومدنيا وتجاريا واجتماعيا وسياسيا . فلم تترك جانبا واحداً منها دون تنظيم عن طريق القانون . وما تزال النظريات التى تضمنتها فى هذه النواحى سابقة لكل ما وصلت إليه النظريات التشريعية الأرضية .

٤ — أن المبادئ الاجتماعية التى قامت على أساسها جاءت تقدمية — وما تزال كذلك — فاندفعت بالبشرية إلى الأمام ؛ وما تزال قادرة على إعادة هذا الدور ، لأنها بالقياس إلى الأوضاع الاجتماعية السائدة وإلى النظريات الاجتماعية السائدة كذلك ما تزال سابقة ومتفوقة .



وحين نعرض مقومات المجتمع الإسلامى بالتفصيل سيتبين الناس صدق هذا الذى نقول . أما الآن فأكتفى بعرض خفيف لخصائص النظم الاجتماعية التى عرفتها البشرية فى أوربا ، نتبين على ضوئها أن النظام الإسلامى نظام متفرد بينها . ليس واحداً منها ، وليس خليطاً من بعضها ، وأنه لم ينم نموها ، ولم يسلك طريقها ، ولا ينطبق تاريخها على تاريخه ، ولا نشأتها على نشأته ، ولا تساير أصولها أصوله . وإن وقع التشابه بين بعض مظاهرها وبعض مظاهره عن طريق العرض والاتفاق :

إن الدراسات الاجتماعية الغربية تقول — متأثرة فى هذا بالتاريخ الأوربى وحده لا التاريخ الإنسانى — إن البشرية قد مرت فى أطوار متتابعة هى : الشيوعية الأولى . فالرق . فالإقطاع . فالرأسمالية . فالاشتراكية فى طريقها إلى الشيوعية . .

فأما الشيوعية الأولى ، فهى مجرد فرض لا دليل عليه يطمأن إليه . فرض يقوم على تصور مرحلة فى تاريخ الإنسان ، خرج فيها من حالة الحيوانية ، وعاش أفراد الجماعة عيشة شيوعية كاملة ، يشتركون فيها فى الملكية العامة ، وفى الجهد الذى يبذلونه جماعة ، وفى التمتع بثمرة هذا الجهد المشترك . واستمرت مدة اعتماد الإنسان فى معاشه على وسيلة الصيد . ثم انتهت عندما عرف الزراعة واستئناس الحيوان ورعى الماشية التى أخذت قطعانها تتزايد وتحتاج إلى من يرعاها . . وهنا عدلت القبائل عن تقاليدها فى قتل الأسرى واستخدمتهم رقيقاً لرعى الماشية وحلبها . . وبذلك ظهر عهد الرق التالى

وعهد الرق هو العهد التاريخى الذى نملك وسائل إثباته التاريخية . أما الشيوعية الأولى فهى مجرد فرض لا ترتقى الأدلة عليه إلى درجة الإثبات العلمى .

وفى وقت من الأوقات كان سكان الامبراطورية الرومانية يتكونون من طبقتين : طبقة الأحرار وتضم حوالى ربع السكان ، وطبقة العبيد وتؤلف نحو ثلاثة أرباع تلك الامبراطورية .

« وكانوا يعاملون معاملة طابعها القسوة : فهم يعملون نهاراً فى الإقطاعيات ، فإذا جن الليل كبلوا بالسلاسل ، وألقى بهم فى الكهوف التى يقضون فيها الليل ، ويقوم عليهم حراس أشداء غلاظ القلوب ؛ وكانت العقوبات التى توقع عليهم تتراوح بين الجلد والصلب . وهذا خلاف استخدامهم كوسيلة لتسلية السادة الأحرار ؛ وذلك بإقامة المبارزات الوحشية ، أو بحملهم على مقاتلة الأسود . وكان ذلك كله يجرى فى حفلات يقبل عليها الأحرار فى شغف(١) » .

ثم زال عهد الرق تدريجياً وحل محله نظام الإقطاع بعد ما تعددت ثورات العبيد على سوء المعاملة ، وقل إنتاجهم فى الحقول .

« ونظام الإقطاع عبارة عن أسلوب من الإنتاج : الصفة المميزة له هى التبعية الدائمة Serfdum ويعرفونه بأنه نظام فى ظله يلتزم المنتج المباشر نحو سيده أو مولاه بأداء مطالب اقتصادية معينة . سواء أكانت تلك المطالب تؤدى على هيئة خدمات يقوم بها ، أم على شكل مدفوعات (أو استحقاقات) يؤديها نقداً أو عيناً . ولتوضيح ذلك نقول : إن المجتمع الإقطاعى كان ينقسم إلى طبقتين : الأولى وتشمل ملاك الأبعاديات الإقطاعية ، والثانية وتتكون من المزارعين على اختلاف مراتبهم . فمنهم الفلاحون والعمال الزراعيون والعبيد . وإن كان عدد الأخيرين ظل يتناقص باطراد وبسرعة . فهؤلاء الفلاحون — أى المنتجون المباشرون — لهم الحق فى حيازة مساحة من الأرض يعتمدون عليها بوسائلهم فى كسب معاشهم ، وإنتاج مايلزمهم من أسباب العيش ؛ كما يمارسون فى بيوتهم الصناعات البسيطة التى تتصل بالزراعة ؛ ولكنهم مقابل ذلك يلتزمون بأمور عدة ، مثل الخدمة الأسبوعية فى أرض الشريف مع آلاتهم وماشيتهم ، والخدمة الإضافية فى المواسم الزراعية ، وتقديم الهدايا فى الأعياد والمناسبات الخاصة . وعليهم كذلك أن يطحنوا غلالهم فى المطاحن التى يقيمها الشريف ، وأن يعصروا كرومهم فى معصرته . وكان الشريف يمارس أمور الحكم والقضاء : أى أنه يشرف على تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية بالنسبة إلى أهل منطقته ، كما أن المفروض فيه أنه مسؤول عن حماية هؤلاء الفلاحين ، ودفع العدوان عنهم . ومن هنا نجد أنفسنا أمام تبادل فى الالتزامات(٢) » .

---

(١) ، (٢) كتاب النظام الاشتراكى للدكتور راشد البراوى .

خليط من نظام الرق ونظام الإقطاع كان يسود الدولة الرومانية عند ما أشرق فجر الإسلام . أما الجزيرة العربية التى شهدت مولده ، فقد كان خليط من نظام البداوة الأولى ونظام الرق هو السائد فيها ؛ ولم تكن قد عرفت بعد شيئاً من نظام الإقطاع ، كما أنها لم تعرفه من بعد ، بسبب وجود الإسلام .

وفى مثل هذا الجو وجدت المبادىء التى لم تتغير إلى هذه اللحظة ؛ والتى ماتزال فى عمومها سابقة على آخر ماعرفته البشرية من أفكار ومذاهب اجتماعية فى العصر الحديث .. وهذه وحدها شهادة قاطعة على أن النظام الاجتماعى الإسلامى هو من صنع نفسه ، بإشراف الشريعة الإلهية التى أوجدته وطورته ، لامن صنع العوامل التاريخية والاقتصادية ، كما هو الشأن فى النظم التى عرفتها أوربا ، والتى يتحدث عنها الماركسيون كما لو كانت نظما عالمية ، ويعطونها صفة الجبر التى لافكاك منها ! .

إنه ليس من الطبيعى ـ إذا صحت نظرية المادية الجدلية وفكرة الجبرية الاقتصادية ـ أن تولد شريعة فى عهد الرق أو فى عهد الإقطاع ، فتتضمن مبادىء لاتقف عند نظام الرق ولاعند نظام الإقطاع ، ولكن تتخطاهما معا ، فيوجد فيها مشابه من النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى والنظام الشيوعى ـ وكلها نظم لم تكن فى الحسبان يومذاك ـ كما توجد فيها مبادىء أخرى مستقلة عن تلك النظم كلها ، ماتزال البشرية تتطلع إلى تحقيقها وتطبيقها فى مستقبلها .

وما كان فى وسع شريعة بشرية تولد فى عهد الرق أو فى عهد الإقطاع ، أن تتضمن ماتضمنه الشريعة الإسلامية من ناحية المستقبل البشرى . بدليل أن جميع الشرائع والنظم الاجتماعية والمبادىء القانونية التى كانت سائدة فى ذلك التاريخ قد انتهى أمرها ، ولم تعد صالحة للحياة فى العصور الحديثة ، ولاملبية لحاجات البشرية الجديدة . بينما المبادىء الإسلامية وحدها هى التى تستمتع بهذه الخاصية ، لا للحاضر وحده ، ولكن للمستقبل كذلك ، لأن الكثير منها ما يزال سابقاً للنظم الوضعية القائمة . . وبذلك تسقط نهائياً حكاية الجبرية الاقتصادية وحكاية التطور التاريخى للنظم الاجتماعية على الترتيب الذى تفرضه الماركسية ! .

« يتبع »

خاطرة :

عبقرية إبليس

فرغت الآن من قراءة قصة « أنا كارنينا » التي كتبها الفيلسوف الروسي « ليوتولستوي » . والحق أنها قصة مليئة حية ، وقد تأثرت بها في أكثر من موضع ، وأعجبتني مقدرته الواضحة في تحليل حركة النفس حين تضطرب ، أو يجمح بها الشك ، أو تصطدم فيها الغيرة بالمنطق وبالحق .

... ولكنني خرجت منها كذلك بظاهرة لا يمكن أن تفوت قارىء هذه القصة ، هي الظاهرة التي استمد منها تولستوي الخطوط العريضة لقصته ، بل الزوايا الدقيقة التي تتبع فيها حركة الأعين ، وملامح الوجوه ، وتصافح الأيدي ، والخطوات الأولى للخطيئة ... هذه الظاهرة هي « الاختلاط »

... اختلاط الرجال والنساء ، ومجالستهم معاً ، وتسامرهم معاً ، واسترسالهم في ذلك مع لذة غامضة ، تبدأ تعارفاً بريئاً ، وتستمر سمراً شهياً ، ثم تصبح عشاً يبيض فيه الشيطان ويفرخ ، وتداف إليه خواطر الإثم مع الكلمة الطائرة ، والنزوة العارضة ، ومع ماتفتنه عبقرية إبليس من أحابيل الفتنة في أثواب زائفة ، يخدع بها الناس ، أو يخدعون هم بها أنفسهم ...

... ولأمر ما كان قول الله سبحانه : «ولا تتبعوا خطوات الشيطان» .. هذا الاختلاط هو الذي انتزع « كيتي » من « ليفين » لحساب « فرونسكي » ، ثم انتزع « فرونسكي » من « كيتي » ليهيم بـ « أنا كارنينا » ولتترك هذه زوجها المخدوع محطم النفس والسمعة ، ولتعيش هي من بعد في جريمتها النكراء حتى تنتحر ...

***

ولم أكن قد فرغت بعد من قراءة القصة حين وصلت الطائرة عصر أمس إلى « بنكوك » عاصمة سيام ... ونزلنا في فندق KLM لنقضي ليلة ثم نواصل الرحلة إلى أندونيسيا ، وكان معنا على الطائرة فتاتان ، إحداهما فرنسية والأخرى هولندية ، معهما أطفال شياطين ... وما إن استرحنا قليلا وذهبنا إلى مطعم الفندق للعشاء حتى كانت الفرنسية مع رفيق من الركاب في لباس فاضح يغازلها وتغازله ، والهولندية في (البار) المجاور تحتسي الخمر في وضع فاجر بين رجلين من قادة الطائرة .. والأطفال نيام لايدرون ماتفعل أمهم ، كما لايدرون من أي أب جاءوا ! . وذكرني ذلك بمشهد شهدته في العام الماضي في الطائرة بين دمشق وطهران ؛ فقد كان بين ركاب الطائرة رجل وامرأة لفتا الأنظار بغرامهما الحار ، فظننتهما زوجين قليلي الذوق ، ولكنني فوجئت حين نزلنا مطار طهران فوجدت المرأة تعرض عن الرجل كأنها لم تعرفه قط ، وتقبل على زوجها المسكين الذي جاء يستقبلها معانقة ! !

***

ولست بهذا أنكر أني رأيت قليلات مهذبات ، ولكن الذي أريد أن أصل إليه هو أن شهوة النفس هي هي وإن ركبت الطائرة ، وأن خوالج هذه النفس لايروضها سلطان العلم ؛ فالطيار الذي كان يصارع الريح بطائرته هو الذي عبثت به الخمر في أحضان فاجرة ، ... ولكن لابد من وازع عميق يلجم شهوتها ... ولا بد من اعتراف بالسنن التي جاء رسول الله ليقرها في نظام حياتنا كما أقرت يد الله وضع الشمس والقمر في نظام الكون ؛ مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لايخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » ومثل قوله : « لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم منها أو زوجها » .

إنها سنن من يتمرد عليها يهلك ... وها قد رأيت !!



من فقه القرآن والسنّة

منهج وتطبيق

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

(٢)

إذا كان من الضروري في هذا الزمن — أكثر من أي زمن مضى — الرجوع في الفقه إلى مصدريه العظيمين الخالدين: الكتاب والسُّنة؛ وإذا كان الفقه الإسلامي كما نعرفه من كتبه ومراجعه التي كتبها فقهاؤنا الأماجد السابقون، أصبح لا يفي بكل ما نطلبه في هذه الأيام، فإن لكل زمن حاجاته ومشاكله التي تتطلب الحلول القانونية على ضوء يناسب روح العصر. نقول إذا كان الأمر كذلك، وجب أن نعمل في هذا السبيل بجد، وأن نسير فيه على منهج علمي سليم، لنصل من ذلك كله إلى ما نريد.



إن السير في علاج أي مشكلة من المشاكل، أو في الكتابة في أي علم من العلوم، على غير منهج واضح ومنطقي، ليس إلا مضيعة للوقت وضرباً في متاهة لا نجد باباً فيها يسلمنا إلى الطريق المستقيم. ولم يكن «ديكارت» الفيلسوف الفرنسي المعروف، مسرفاً فيما أنفق من زمن وجهد في وضع: «مقال عن المنهج لإحكام قيادة العقل للبحث عن الحقيقة في العلوم»، فإنه بفضل هذا «المقال» أمكنه أن يسير في فلسفته على أساس ثابت هداه إلى كثير من الحقائق.

ومن قبل الفيلسوف الفرنسي، نجد حجة الإسلام الإمام الغزالي[1] يضع بكتابه الخالد: «المنقذ من الضلال» المنهج الذي يجب أن يصطنعه من يريد الوصول إلى الحقيقة التي اختلف فيها المتكلمون والفلاسفة والصوفية والرياضيون، وبه أدرك ما عز

---

(١) توفي الغزالي عام ٥٠٥ هـ — ١١١١م، وتوفي ديكارت عام ١٦٥٠ م. وقد بينا في رسالة لنا بالفرنسية نوقشت «بالسوربون» بباريس عام ١٩٤٨ مقدار تأثر الثاني — وغيره من الفلاسفة الغربيين في ذلك العصر — بالغزالي وابن رشد من الفلاسفة المسلمين.

عليه إدراكه بالعلوم التي شغلت بها هذه الطوائف من العلماء .

ومن أجل ذلك كله ، علينا أن نحاول منذ الآن ، قبل الدخول في الموضوع الأصيل من هذا البحث ، تحديد المنهج الواجب الاتباع ، وهذا لنسير على بينة من الأمر ، وخطى مرسومة متئدة تؤدي بنا للغاية التي نرجوها ؛ نعني تعرُّف فقه الإسلام من كتاب الله المحكم وسنة رسوله الصحيحة ، بقطع النظر عن آراء هذا الفقيه أو ذاك من أصحاب المذاهب الفقهية المعروفة في الإسلام .

ونستطيع أن نحدد هذا المنهج ، الذي نرجو أن نوفق للأخذ به ، فيما يأتي :

١ — وجوب وضع كل الآيات والأحاديث التي وردت في المسألة تحت النظر معاً ، ثم نأخذ في فهم كل منها وحدها ، وفهمها جميعاً متساندة بعد ذلك ، وإن لم يفعل الباحث ذلك وقع في الخطأ في الاستنتاج وبيان حكم الله تعالى ، وبخاصة وبعض الأحكام — كتحريم الخمر — لم تنزل مرة واحدة ، وذلك على سبيل التدرج في التشريع .



٢ — تقديم النص المكي على المدني ؛ « فالمدني ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي ، وكذلك المكي بعضه مع بعض ، والمدني بعضه مع بعض ، على حسب ترتيبه في التنزيل ، وإلا لم يصح »[١] وهذا لأن المتأخر من النصوص مبني في الغالب على المتقدم بدليل الاستقراء «وذلك ، إنما يكون ببيان مجمل ، أو تخصيص عموم ، أو تقييد مطلق ، أو تفصيل ما لم يفصل ، أو تكميل ما لم يظهر تكميله »[٢] .

والأمر في السنة كذلك «لأنها مبيِّنة للكتاب ، فلا تقع في التفسير إلا على وفقه . وبحسب المعرفة بالتقديم والتأخير ، يحصل بيان الناسخ من الحديث ، كما يتبين ذلك في القرآن أيضاً »[٣] . فما لا ريب فيه أن اعتبار الترتيب في النزول مفيد في فهم الكتاب والسنة ، وإهمال ذلك يؤدي إلى خطأ كبير لا يستقيم معه بحث ولا تظهر به الحقيقة .

٣ — وبعد هذا وذاك ، يجب أن نفهم أن القرآن ، وإن كان الأساس والمصدر الأول للشريعة الإسلامية ، لا يدل على الأحكام الفقهية منها في الغالب من الأمر إلا على نحو كلي لا جزئي ، لأنه ليس كتاب فقه أو قانون ولا أي علم آخر من العلوم التي نعرفها ؛ فهو محتاج إلى كثير من البيان الذي تكفلت به سنة الرسول النوع الآخر من الوحي ، ومن هنا كانت أهمية السنة في هذه الناحية ، وعلى هذا ، « لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه ، دون النظر في شرحه وبيانه وهو السنة[٤] » .

(١ ، ٢ ، ٣) الموافقات للشاطبي ، ج ٣ : ٢٤٤ — ٢٤٦ ، المطبعة السلفية عام ١٣٤١ هـ

(٤) نفس المرجع ج ٣ : ٢١٧

ومن الأدلة على ذلك ، إن كنا بحاجة لدليل بعد قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم » ، أن كثيراً من الأحكام الفقهية لم نعرفها إلا عن طريق السنة ، وذلك فى الصلاة والزكاة والأحوال الشخصية والمعاملات وغيرها .

٤ — والكتاب نزل للناس كافة ، ولكن بلسان العرب ، فهو عربى من جهة الألفاظ والأساليب التى دلّت على ما أراد الله تعالى بيانه من المعانى والأحكام . فيجب ، عند إرادة استنباط ما جاء به من أحكام شرعية ، رعاية هذه الحقيقة قبل كل شىء .

أى على الباحث أن يسلك إلى ما يريد ، « مسلك كلام العرب فى تقدير معانيها ومنازعها فى أنواع مخاطباتها خاصة ؛ فإن كثيرا من الناس يأخذون من أدلة القرآن بحسب مايعطيه العقل (أى عقل الباحث) فيها ، لا بحسب مايُفهم من طريق الوضع (أى الوضع اللغوى) ، وفى ذلك فساد كبير وخروج عن مقصود الشارع »(١) ومن البدهى أنه ليس فى شىء من هذا حجر على العقل فى الفهم ، بل المراد جعل العقل يسير فى فهم النص من القرآن والسنة حسب أصول العربية التى جاء القرآن بها .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن للغة العربية نفسها قوانينها وقواعدها ، ومن الكلام العربى مالا يفهم المراد به إلا بملاحظة ماقد يكون فيه من حقيقة ومجاز واختصار وحذف وتقديم وتأخير مثلا . وإذاً فليس لأحد أن يسارع إلى تفسير القرآن أو السنة حسب ظاهر اللغة دون رعاية ماتقدم ونحوه .

وفى هذا ، يقول الإمام القرطبى : (فمن لم يحكم ظاهر التفسير ، وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية ، كثر غلطه ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى . . ألا ترى أن قوله تعالى : « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها » ، معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها . فالناظر إلى ظاهر العربية ، يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم(٢)) ، إلى آخر ما قال .

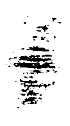
٥ — وبعد ذلك ، قد يجىء النص فى أكثر الأحوال لبيان حكم خاص لا يقصد غيره ولو تبعا ؛ كما فى آيات وأحاديث المواريث ، وتحليل البيع وتحريم الربا ، والحدود والزواج والطلاق ، وغير هذا كله . ولكن ، قد يجئ أحيانا أخرى لبيان معنى أو حكم أصلى ، مع دلالته أيضا على معنى أو حكم تبعى من أحكام الفقه . وهنا ، يجب ملاحظة

(١) الموافقات للشاطبى ، جـ ١ : ١٩ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ : ٢٩ .

هذه الناحية فلا نقتصر من النص على إفادته الحكم الأصلى ونترك التبعى الذى لم يأت النص لبيانه قصدا .

ويمكن التمثيل لهذا من القرآن بقوله تعالى فى سورة الجمعة : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذَرُوا البيع » . فإن المراد الأصلى من هذه الآية ، هو وجوب السعى للصلاة عند النداء أو الأذان للجمعة ، لا بيان أن البيع مكروه أو فاسد فى هذا الوقت ، لكن هذا معنى يُفهم من الآية تبعا فلا يصح إهماله .

ومن الحديث ، نجد قوله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا » ، يفهم منه بطريق الأصالة أن الغش لا يتفق مع صفة الإسلام فلا يليق صدوره من المسلم . بيد أننا نفهم منه بطريق التبعية ، أن للمشترى شيئا دخل فيه الغش والتدليس الحق فى فسخ العقد ، وإن كان هذا الحكم جاء قصدا فى حديث آخر . وقد نجد مثالا آخر فى قول الرسول أيضاً : « إذا استيقظ أحدكم من نومه ، فلا يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ، فإنه لا يدرى أين باتت يده » فقد أخذ منه الإمام الشافعى أن الماء القليل ينجس إذا خالطته نجاسة قليلة وإن لم تغير منه فى لونه أو رائحته أو طعمه ، وإن كان الحديث مسوقا للحث على النظافة فى كل حال .



٦ — ثم ، ينبغى لمن يطلب الفقه من الكتاب والسُّنة أن يتناسى قبل كل شىء مقدرات المذاهب الفقهية ، وإن كان له الاستئناس بها أخيراً ، ليكون حراً فى الاستنباط . لأنه من الخطأ فى المنهج ، وهو يحاول معرفة الفقه من مصدريه الأصيلين العظيمين ، أن يتخذ لنفسه مذهباً معيناً ، ثم يعمل على الاستدلال له من القرآن والحديث . إن مثل هذه الخطة قد تؤدى إلى تأويل بعض الآيات والأحاديث لتوافق المذهب الذى اختاره ، أو الذهاب إلى أن ما لا يوافقه من الحديث مثلا قد نُسخ أو فيه ضعف أو نحو هذا من العلل التى تمنع الاحتجاج بالحديث .

ولعل من أوضح المُثل لذلك مسألة الشفعة . هل هذا الحق للشريك وحده ؟ أم له وللجار أيضا ؟ ثم ، هل الشفعة فى العقار وحده ؟ أو فيه وفى المنقول أيضا وإن بيع استقلالا لا تبعاً للعقار ؟ . هنا نجد الفقهاء يختلفون اختلافا كثيرا ، ونجد كلا منهم — وقد اعتقد صحة مذهبه — يرد أو يؤول الأحاديث والآثار التى لا تشهد له[1] .

---

(١) راجع فى ذلك كتابنا : « الأموال ونظرية العقد فى الفقه الإسلامى » من ٢٠٥ ومابعدها و٢١٢ وما بعدها .

٧ — واختلاف البيئات والأزمان والأعراف له حكمه فى التشريع بلا ريب ، مع رعاية الشروط التى عنى الأصوليون والفقهاء بوضعها لاعتبار العرف دليلا أو أصلا للأحكام الفقهية . لذلك ، من الضرورى أن نلاحظ ذلك فى الاستنباط والتطبيق ، ولا شىء علينا فى اعتبار العرف ما دمنا ندور فى فلك كتاب الله وسنة رسوله .

* * *

من ذلك كله ، نرى أن أخذ الفقه مباشرة من هذين المصدرين القدسيين ، يتطلب بلا ريب حذراً شديدا ، وأن يكون الباحث قد تهيأ لهذا الأمر الخطير بما يجب له من علوم ودراسات لابد منها ، وإلا ضلّ وأضل من يسمع له ، وقد يكون مع هذا كله يسير فى بحثه على منهج علمى سليم ، فمن الخطر إذن ، ومما يجب ألا يسمح به بحال ، أن يترك الأمر فوضى بلا ضابط أو منهاج ؛ كما نسمع كثيراً هذه الأيام ممن يدعون كل من يستطيع قراءة القرآن والحديث إلى الرجوع إليهما ، وإلى ترك التراث العظيم الخالد الذى تركه لنا الأئمة الفقهاء الأعلام رضوان الله عليهم جميعا .



ونرى من الخير بعد كل ما تقدم ، أن نشير هنا إلى بعض المراجع المعتبرة التى تفيد الباحث فى فقه الكتاب والسنة ، وهى :

١ — أحكام القرآن للشافعى ، جمع الإمام الحافظ البيهقى المتوفى عام ٤٥٨ هـ صاحب السنن الكبرى، نشر عزت العطار الحسينى بالقاهرة عام ١٩٥٢ م ، وهو فى جزءين .

٢ — أحكام القرآن للامام الرازى الجصاص الحنفى المتوفى عام ٣٧٠ هـ ،وهو فى ثلاثة أجزاء طبع الآستانة عام ١٣٢٥ هـ ،وفى عرضه للايات يذكر ما يتصل بها من الحديث.

٣ — أحكام القرآن للقاضى أبى بكر بن العربى المالكى المذهب المتوفى عام ٥٤٢ هـ وهو فى جزءين طبع السعادة بالقاهرة عام ١٣٣١ هـ

٤ — الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المالكى المتوفى عام ٦٧١ هـ ، وهو فى عشرين جزءاً ، طبع دار الكتب المصرية

٥ — السنن الكبرى للبيهقى الشافعى المتوفى عام ٤٥٨ هـ ، وأحاديث المعاملات فى الجزءين الخامس والسادس ؛ طبع حيدر آباد الدكن بالهند عام ١٣٥٢ هـ .

٦ — شرح الإمام النووى الشافعى على صحيح مسلم ، المتوفى عام ٦٧٦ هـ ، الجزء الرابع .

٧ — فتح البارى لابن حجر الشافعى المتوفى عام ٨٥٢ هـ ، على صحيح البخارى ، الجزء الرابع .

٨ — سبل السلام للصنعانى المتوفى عام ١١٨٢ هـ ، الجزء الثالث .

٩ — نيل الأوطار للشوكانى المتوفى عام ١٢٥٥ هـ ، الجزء الخامس .

رسالة لم تنشر

للأمير شكيب أرسلان

« منذ اثنتين وعشرين سنة أرسل فقيد الإسلام الأمير شكيب أرسلان مقالات فى الصحف الإسلامية عامة والصحف المصرية خاصة ندد فيها بمظالم الطليان فى ليبيا وأ لب عليهم العالم الإسلامى أعنف تأليب ، فهب المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يحتجون على تلك الفظائع ويستنكرونها ويتداعون إلى مقاطعة إيطاليا ، وقد كتب يوم ذاك الأستاذ المجاهد السيد أكرم زعيتر إلى الأمير المقيم فى سويسرا يحذره من غدر الطليان ، ثم يسأله عن الطرق الواجب اتباعها لتحرير الإسلام والمسلمين ، فتلقى منه هذه الرسالة الرائعة التى تعد من نفائس ما خلفه الأمير الفقيد — رحمه الله — وقد آثر بها الأستاذ زعيتر (المسلمون) شكر الله له . . »

التحرير



لوزان ١١ مايس ١٩٣١

جناب ولدنا الأعز الأفضل السيد أكرم زعيتر المحترم أعزه الله .

تناولت رقيمكم وفهمته وشكرتكم كثيراً .

يا ولدى إن الذى نحن فيه هو جهاد ، والجهاد هو الحرب فهل رأيت جندياً يذهب إلى الحرب لأجل القتال ويقول : لعلها جاءتنى رصاصة ؟ إن الذاهب إلى الحرب وطَّن نفسه من قبل على الرصاصة وغيرها .

لما خرج مصطفى كمال على الإسلام وأخذ يهدمه فمع المودة التى بينى وبينه لم أتوقف عن الشروع فى هدمه على حين لم يكن أحد يجرأ أن يذكره بسوء حتى فى بلاد العرب . فقيل لى : إن هؤلاء الأتراك حالهم معلومة فى الفتك فقد يرسلون من يعتدى عليك . . فقلت : إن كنت سأفكر فى أشياء كهذه فلا أقدر أن أدافع عن الإسلام أبداً . ولم أفكر فى هذا الخطر .

ثم لما حصلت مسألة البربر ونشرت جريدة الطان أن أصل الحركة عليها وفصلها هما منى وسمعت أشياء كثيرة ... قيل لى الشىء نفسه فأجبت بالجواب نفسه .

وأما إيطاليا فأخبار فظائعها عندى من زمان ، ولكنى صابر متحمل رعياً لمودة بيننا وبين موسولينى ومقالات كان كتبها لنا لما كان محرراً « البوبولو ديتاليا » ، وكان كتب لى البشير السعداوى رئيس اللجنة الطرابلسية البرقاوية بالشام مراراً حتى أعضدهم فقلت

لوزان ١١ مايس ١٩٣١

جناب ولدنا الاعز الافضل السيد اكرم زعيتر المحترم اعزه الله

تناولت رقيمكم وفهمته وشكرتكم كثيراً.

يا ولدي ان الذى نحن فيه هو جهاد . والجهاد هو الحرب فهل رأيته جندياً يذهب الى الحرب لاجل القتال ويقول: لعلها جاءتني رصاصة ؟ ان الذاهب الى الحرب وطن نفسه من قبل على الرصاصة وغيرها .

لما خرج مصطفى كمال على الاسلام واخذ يهدمه . مع المودة التي بيني وبينه لم اتوقف عن الشروع في هدمه على حين لم يكن احد يجرأ ان يذكره بسوء حتى في بلاد العرب . فقيل لي : ان هؤلاء الاتراك حالهم معلومة في الفتك فقد يرسلون من يعتدي عليك ... فقلت : ان كنت سافكر في اشياء كهذه فلا اقدر ان ادافع عن الاسلام ابداً . ولم افكر في هذا الخطر

ثم لما حصلت مسألة البريد ونشرت جريدة الطان ان اصل الحركة عليها وفصلها هما مني وسمعت اشياء كثيرة . قيل لي الشيء نفسه فاجبت بالجواب نفسه

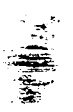
واما ايطاليا فأخبار فظائعها عندي من زمان . ولكني صابر متحمل رعياً لمودة بيننا وبين موسوليني ومقالات كان كتبها لنا لما كان محرراً للبوبولو ديتاليا . وكان كتب لي البشير السعداوي رئيس اللجنة الطرابلسية البرقاوية بالشام مراراً حتى اعضدهم فقلت

« صورة زنكغرافية لأول الخطاب بخط الأمير الفقيد رحمه الله »

له : يا أخي ضاقت علينا الأرض بما رحبت . إنكلترة ضدنا . فرنسة ضدنا . تركيا ضدنا . الأجانب كلها ضدنا . ثم نثير عداوة إيطاليا من جديد . ونستحي من موسوليني لأنه سبق له مساعدة لقضيتنا ، فانشروا أنتم ما شئتم وأنا أساعدكم بالمساعي وبالنشريات بدون إمضاء لي ، وفعلا كنت أنشر بغير إمضاء لي .

ثم تفاقمت أفعال إيطاليا . فما استطعت الكتمان ونشرت في « لاناسيون آراب » مقالة انتقاد مع الاعتدال ، ونبهت موسوليني للأخذ على أيدي قواده .

ثم تفاقمت فظائع إيطاليا ؛ فلم أستطع صبراً ، وقبل أن أكتب فكرت في كل شيء ، ولم أكن لأجهل أعمال الفاشيست وتشكيلاتهم الخفية وإعلانهم التوصل إلى محو أعدائهم بكل وسيلة ، ولكني قلت : إن بقيت أحسب هذه الحسابات لا أقدر أن أدافع عن الإسلام دفاعاً مؤثراً ، والمسألة وصلت إلى حد لا يطاق ، وإذا جرت هذه الفظائع بالطرابلسيين وسكت لها المسلمون جرت في سائر الأماكن لأن أكثر العالم الإسلامي مستعمرات ، وإن لم يكن جميع الأوربيين في سفالة الطليان فالفرق قليل ، ومن الغريب أن الإفرنج ينظرون إلى الإسلام في كل محل كأنه ساكن بقعة واحدة ، وهم يجسون نبضه في كل قطر حتى يعرفوا كيف يعاملونه في القطر الإسلامي الذي تحت ولايتهم . تأمل أن فرنسا أرسلت بعثة طويلة عريضة أنفقت عليها أموالا لأجل البحث عن أهمية الإسلام في الصين ، وهل هو هناك كثير العدد كما يقال أم لا ؟ لأن الأقوال اختلفت . فأنت ترى أنها لأجل سياستها في مسلمي المغرب تريد أن تزن قوة الإسلام حتى في الصين إذ هم لا يعلمون الإسلام إلا كتلة واحدة ، ومثل فرنسا إنكلترة وهولاندة والروسية وإيطاليا وأسبانيا والجميع .



فرأيت أن السكوت عن أعمال إيطاليا هذه سقوط لنا في كل محل ونهايته محو مسلمي طرابلس وبرقة ، ورأيت أن الجمعية الطرابلسية البرقاوية قد نشرت مراراً ولم يتنبه أحد ولا اكترث . فعند ذلك نبذتُ إلى إيطاليا بدون مداراة ولم أخش الضراء وقلت : وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ولو لم أفعل هذا ولو لم أكتب هذا البيان ما قام الناس وقعدوا لهذا الخطب وأثبتوا نهضة إسلامية أكيدة انتبهت لها الدول التي كانت تظن أن الإسلام بعد إلغاء الخلافة وإلحاد تركيا تفكك تماماً وتلاشى . فالآن عرفوا أنه حي وأنه متكافل ، وأن إلحاد تركيا لم يقدم ولم يؤخر شيئاً .

فهذه نتيجة تثلج لها صدري وصدر كل مسلم مخلص ذي شعور ناظر للعواقب

وستكون فاتحة خير إن شاء الله . فأما احتراسى لنفسى فلا يمكن لأنه إن كان مقدَّراً أن يغدر بى غادر فلا أقدر أن أمنعه لأنى أخرج كل يوم وأتناول الشاى خارج بيتى وأمشى ساعتين . ولولا هذه النزهة اليومية ما كان يمكننى أن أكتب كل يوم مدة ٨ ساعات وأقرأ ٥ ساعات هذا بدون انقطاع .

نعم لست بعد الآن ذاهباً عن طريق إيطاليا إلى محل فإن سافرت مرة إلى الشرق — إلى الحجاز واليمن إذا لا أقدر أن أدخل غيرهما — فلا أركب البحر إلا من ألمانيا أو بلجيكا أو بلاد اليونان . هذا كل ما أقدر أن أحتاط به وأظن أن الفاشيست يفكرون أنهم إن اغتالونى فالمسلمون يجدون قناصل وسفراء لإيطاليا فى بلادهم لا يعجزهم اغتيالهم .

ثم اعلم يا ولدى أن من خاف من شىء سلطه الله عليه فأنا لا أخاف ولا أحب أن أخاف ، وموسولينى ومصطفى كمال وأمثالهما عندما يقرأون ترجمة كلامى أو ما أكتبه بالإفرنسية رأساً يعلمون أنه ليس بكلام من يحسب لهم حسابا والله خير حافظاً .

تكذيبات الطليان ولو كانت كاذبة دالة على أنهم اضطربوا لهذه الحركة وأنهم علموا أن جسم الإسلام لم يشل وأن آمالهم فى الاستيلاء على اليمن بتخدير أعصاب العرب صارت ضعيفة . ولقد اعتبر بهذه الحركة الإنكليز واليهود والفرنسيون أيضا ووصل خبرها إلى أوربا . نعم لا يزال بعض الفرنسيس يقولون إن مصدر حركات العالم الإسلامى كلها من لوزان ... وأمس بلغنى أن جريدة « البوند » التى تصدر فى عاصمة سويسرة والتى هى من أهم الجرائد قالت شيئاً من هذا . وبعثت فى طلب العدد . ولكن هذا لا يغير من جوهر الحقيقة شيئاً . فالحقيقة أن الإسلام متضامن متكافل حى مستيقظ باغ للنهوض ، فإذا كان كاتب مضى عليه ٤٥ سنة وهو يخاطب المسلمين ويدافع عنهم من شأنه أن يحركهم بمقالة فليس هذا إلا دليلا على رقة شعورهم وشدة انتباههم لكل ما يمس الإسلام وأنه لهم ثقة بمن صدقهم القول من ٤٥ سنة .

الحركة البربرية كانت أول نتائجها نشاط المغاربة واندفاع شبانهم للعمل ، وهذه بذاتها نتيجة كافية لأن المساكين كانوا من قبل فى حال اليأس لا يبدون ولا يعيدون . فالآن الحركة عمت عندهم جميع الطبقات . وجريدة الطان اضطرت أن تعترف « أن المغرب بدأ يسير على خطة مصر وسورية . نعم تأخر لكنه عاد فتعقب الطريق نفسها » والآن المراقبة من أشد ما يكون على طلبة المغاربة بباريز الذين يقولون لهم دائما : أنتم تسيرون بإشارة شكيب أرسلان .



ولكن كل هذا غير ثانٍ من عزم هذه الناشئة المباركة المغربية .

وكانت النتيجة الثانية أن « المسألة البربرية » وُجدت الآن شاءت فرنسا أم أبت . وبدأ كتاب من الفرنسيس يخوضون فيها منهم ضدنا ومنهم معنا . وأن حزبا غير قليل ينتقدون هذا الظهير ويطلبون إلغاءه . ومجلتنا « لا ناسيون آراب » تُقرأ بكل اهتمام وتعتبر هي نبض الأمة العربية . هذا يبلغنا من باريز . وكل مركز عال سياسى من مراكز الحكومة الفرنسوية يرسل بدل اشتراكها سلفا ويطلبها .

نعم فرنسا تخشى من إلغاء الظهير ازدياد الجرأة على مطالب أخرى سياسية فلهذا لا تزال تتردد فى إلغائه . ولو حصلت المقاطعة الفعلية لبضائعها واشتدت الحركة عليها فى العالم الإسلامى لم يكن لها مناص من إلغاء الظهير . فالمقاطعة والاحتجاج هما الآن أحدُّ أسلحتنا فلنرهف هذه الأسلحة . أفلم تر الهند كيف نالت ثلاثة أرباع مطالبها بها ؟ ومسألة الهند هى أعظم مسألة استعمارية فى الدنيا .



تسألوننى رأيى فى الطرق الواجب اتباعها لتحرير الإسلام وإنهاضه .

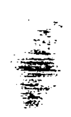
ومرادى أن أحرر بعد رسالة « لماذا تأخر المسلمون ؟ » رسالة أخرى اسمها « هذا هو الداء فما الدواء ؟ » تكون تتمة للأولى ، لكنى سأصدرها بعد أن تنفد نسخ الأولى .

نحن أمة كسائر الأمم . بشر كسائر البشر . نتبع طرق الأمم التى كانت فقدت استقلالها ثم استقلت . أمامنا اليونان . البلغار . الصرب . الفلاخ والبغضان . المجر التشيك . الطليان أنفسهم . بولونيا . فنلانده . ليتوانيا . لتونيا . استونيا . إيرلاندة . سويسرة من قديم . كتالونيا هذه المرة . أمريكا الشمالية . أمريكا الجنوبية بجميع أقسامها وهلم جرا .

كل هذه الأمم كانت استولت عليها أمم أجنبية عنها وأسقطت حكوماتها وصارت ترهقها ، وكل هذه الأمم عادت فطردت الأجنبى واستقلت : منها بعد ٥٠ سنة من سقوطها ومنها بعد ١٠٠ سنة ومنها بعد ٢٠٠ ومنها بعد ٥٠٠ سنة الخ ...

نحن نسلك طريقهم لا غير . طريقهم أنهم بعد أن انقرضت حكوماتهم ودولهم عمدوا إلى الجمعيات ... جمعيات منها سرية ومنها علنية قانونية . فهذه قامت لهم مقام دولهم . فقام الفكر مقام السلطة . قامت السلطة الشعبية مقام السلطة الأجنبية الحاكمة ولم تزل تتقوى حتى تناولت السلطة القانونية باسم الوطن . فالجمعيات وهى ما يسميه الترك

بالتشكيلات هي طريق الخلاص . جمعيات خفية . جمعيات قانونية . لجان . شركات . نقابات . كل هذه التشكيلات سواء كانت خيرية أو علمية أو اجتماعية أو تجارية أو صناعية أو زراعية قوى للوطن ومنابع حياة له . وهذه الجمعيات لها صناديق .. وهذه الصناديق وجودها يعلم البذل أو مايعبر عنه بالتضحية ، فإذا صارت في الوطن الواحد عدة جمعيات وشركات ولجان ، وكل واحدة منها لها صندوق ملآن صارت في الوطن عدة قوى أو عدة أجنحة تنهض به . وقد تعاكسها السلطة الأجنبية الحاكمة وتحاول خنقها ، لكنها إذا قويت وكثرت تعجز عن ذلك فتضطر إلى الاعتراف بها وربما إلى الاستنجاد بها في الأحايين . عندكم أنتم في فلسطين المجلس الإسلامي . المؤتمر الفلسطيني ولجنته التنفيذية . جمعية الشبان المسلمين . . . الخ . هذه غير كافية لكن لولاها كانت حالتكم أسوأ جداً لأنها على كل حال هي أجنحة لكم .



فإذا تعددت هذه التشكيلات ولا سيما إذا كانت صناديقها ملأى كان بها الوطن ملآن حياة فصار في مجموع العالم الإسلامي أشبه بعضو قوى ملآن دما في جسم الإسلام ، ويكون القطر الآخر الذي بجانبه على نمطه والقطر الآخر والقطر الآخر وهلم جرا من أول العالم الإسلامي إلى آخره . وهي الطريقة الإقليمية regionaliste أي أن كل إقليم يبدأ أولا بنفسه ويوطد مداميك حائطه ، فإذا رأى نفسه تقوى وارتاش وصار قادراً على النهوض التفت إلى جاره ومد يده إليه .

وأما الجامعة بين هذه الأقطار فهي طبيعية حاضرة أقرب من حبل الوريد ، وما دام القرآن موجوداً لايخشى عليها فبمجرد إشارة واحدة من أحد هذه الأقطار يتحرك الجميع كأنها ثريا كهربائية تضيء بحركة زر واحد . لكن لافائدة من مجرد الحركة إن لم تكن الأقطار كلها ملأى حياة محلية ، أو الأفواه الكهربائية كلها ملأى نوراً .

فإذا كان كل من الأعضاء ملآن حياة تألف منها جسم نشيط وثيق قوى سريع ناهض جميع مافيه يؤدي ماعليه تماما فنال مراده في هذه الحياة .

وبعبارة أخرى إذا كانت سورية وفلسطين ومصر والعراق ونجد والحجاز واليمن والسودان والحبشة والصومال وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش والهند والجاوا الخ . الخ كلها فيها هذه الجمعيات والشركات والنقابات والهيئات الممثلة للشعوب وكانت قائمة بوظائفها حق القيام فتصير إذا تحركت بحركة واحدة لقضية البربر أو قضية طرابلس أو غيرها تجد الأجانب لحركة هذه الأقطار نتائج فعلية عملية سريعة مؤثرة

عامة شاملة فتخشى مصادمتها ومقاومتها وتنقاد لمطالبها لأنها تعلم أن وراء مصادمتها فتناً وغوائل عظيمة .

فالتشكيلات هى قوة كل أمة فقدت حكومتها وكيانها السياسى .

وهى الزعيمة مع الثبات والعزم وإتقان العمل وروح التضحية بإعادة ذلك الكيان السياسى .

وقد كان العالم الإسلامى قبل الحرب العامة معتمداً على الدولة العثمانية يراها كل شىء ويطلب منها كل شىء ويظن نفسه مستريحا بوجودها .

وكان المسلم لا يفكر ولا يريد أن يفكر فى مسائل الإسلام العامة اعتقاداً بأن هناك دولة كبرى وخلافة هى المرجع لكل هذا وأنها ناظرة إلى كل شىء .

وصار هذا الاعتقاد وسيلة المسلم أن يكسل ويهمل ويقول لنفسه مالى وللاهتمام بما يهتم به من هو أولى وأقدر منى ، وربما قال بما لا يعنينى . فهذا الاعتماد أضر الخلافة وأضر العالم الإسلامى نفسه .



أضر الخلافة لأنه حمّلها كل شىء من الفيلبين إلى المغرب وألقى كل المهام عليها فعجزت ورزحت تحت الحمل حتى عجزت عن حفظ ما هو بيدها فضلا عن البعيد .

وأضر نفسه لأنه يتخيل أن كل المهام قائمة بها الخلافة فى استانبول أهمل كل مسعى وكل عمل ، وصار ينظر إلى نفسه كقاصر ليس له أن يهتم بشىء مع وجود وليه ، فصارت الدولة ضعيفة وصار العالم الإسلامى ضعيفاً وصار ضعف كل منهما يزيد ضعف الآخر ، وصار الحال أشبه بجسم جميع أعضائه شلاء أو مصابة ؛ فالرأس مهما كان مفكراً لا يستطيع مع ضعف الجسم كله شيئاً .

فصار الناس الذين لا يدققون فى أسرار الأمور أو الذين فى قلوبهم مرض يقولون : إن هذا الضعف إنما جاء من الخلافة . وأقنعوا بهذه السفسطة كثيراً من البله أو السذج . يقضى على المرء فى أيام محنته ...

والحقيقة لو كانت أقسام العالم الإسلامى كلها ملأى حياة لكانت الدولة العثمانية أقوى دول الأرض إذ كانت رأسا لثلاثمائة وخمسين مليون آدمى كل واحد منهم قائم بوظيفته فى نصرتها ، ولكنها كانت رأسا لثلاثمائة وخمسين مليونا منهم ٣٠٠ مليون تقريبا فى حكم القاصرين ؛ فماذا يفيد القاصرون مهما كثروا ؟

فالآن يجب علينا أن نؤسس من تحت . يجب أن نربى الفرد الإسلامى فنخرجه

فرداً عاملا قائماً بالواجب عليه سواء كان زارعاً أو صانعا أو تاجراً أو حاكما أو معلما أو مصلياً الخ ... ومن مجموع الأفراد القائمين بما عليهم حق القيام يتألف البلد الزاهر الراقى . ومن مجموع البلدان الزاهرة الراقية تتألف المملكة القوية المهيبة التى لا تحصل على القوة إلا حصلت على الاستقلال لأن هذين لازم وملزوم .

ومن مجموع الممالك القوية المهيبة يتكون حينئذ رأس هو الخلافة إذا استقلت به إحدى دول الإسلام كانت رأسا تطاطىء له الرءوس .

وليس بضرورى أن سائر أقسام العالم الإسلامى تصير ولايات تابعة لدولة الخلافة فهذا لن يكون ولا ينبغى السعى له . إنما إذا كانت تلك الأقسام كلها سليمة نشيطة عاملة جادة كان من نصرتها للخلافة مادة ومعنى ما يجعل هذه فى غاية المنعة .



انظر إلى سلطنة انكلترة وقوتها بواسطة بريطانيا العظمى والدومنيون والهند برغم أن من الأربعمائة مليون الذين تحت سلطة ملك انجلترة نحو ٣٥٠ مليون هم فى الواقع أعداء لانكلترة ، والإنجليز العاملون لمجد هذه السلطنة هم ٥٠ مليونا لا غير . إلا أنهم كأفراد أو أعضاء قائمون بكل ما يجب عليهم نحو الجسم .

فالعالم الإسلامى إذا نهض تكون قلوبه كلها مع الخلافة لا كمستعمرات انجلترة مع مع ملك الإنجليز . هذا هو مذهبى فى النهضة الإسلامية ولذلك تأتينى كتب كثيرة من المغرب وجاوا ومصر وسورية والعراق ونفس فلسطين بلدكم مقترحا أصحابها عقد مؤتمر إسلامى أو انتخاب خليفة وما أشبه ذلك .

ويكون جوابى دائما يجب أن نؤسس من تحت . يجب أن نربى الفرد ثم البلد ثم القطر ثم المملكة ثم العالم الإسلامى . ويقولون إن تعليم الأفراد وترقية الأقطار هما مما يأخذ وقتا طويلا ونحن فى حاجة إلى العجلة . وأجاوب أن التعليم بطبيعة الحال سائر مع التشكيلات التى ذكرناها إذ لا خير فى تشكيلات إن لم يكن أول شىء تبدأ به هو التعليم والتهذيب . أما أن نعقد مؤتمراً مجموعا من ضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة وهم لا يقدرون أن ينفذوا قراراً فما فائدة ذلك ؟ أنريد نحن أن نجمع أصفاراً ؟

اجتمع المؤتمر الإسلامى فى مكة منذ خمس سنوات وقرر إعادة العقبة ومعان إلى الحجاز وسكة حديد الحجاز كلها إلى المسلمين . فهل نفذ شىء من ذلك ؟

ولم ذلك ؟

الجواب لأن الدول الأوربية يعلمن ضعف العالم الإسلامى فلا يبالين بقراراته . فأما

إذا صار قويا — وهن يجسسن نبضه كل يوم — فتراهن تلقين قراراته حالا بالسمع والطاعة ، ثم إن من جملة ضعف العالم الإسلامى أن الذين جاءوا إلى ذلك المؤتمر أول سنة لم يجتمعوا فيه ثانى سنة . وأى ضعف وأى تخاذل أكثر من هذا ؟

أخذ معى هذا المكتوب أربع ساعات وحملت نفسى عليه برغم ضيق وقتى نظراً لأهمية الموضوع . فاقرأوه للمخلصين من المفكرين والمهتمين بمستقبل هذه الأمة ، واشكروا لى عواطف النابلسيين الكرام بحقى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

شكيب أرسلان

26 Avenue Des Alpes
Lausanne.



اخذ معي هذا المكتوب اربع ساعات وحملت نفسي عليه برغم ضيق وقتي نظراً لاهمية الموضوع . فاقرأوه للمخلصين من المفكرين والمهتمين بمستقبل هذه الامة واشكروا لي عواطف النابلسيين الكرام بحقي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص
شكيب
ارسلان

26 Avenue Des Alpes
Lausanne

« صورة زنكغرافية لآخر الخطاب بخط الأمير الفقيد رحمه الله »

التشريع الجنائى الإسلامى

للأستاذ عبد القادر عوده

أركان السرقة

(٢)

أنواع الأخذ خفية : والأخذ خفية على نوعين : فهو إما أن يكون أخذا مباشرا ، وإما أن يكون أخذا بالتسبب .



الأخذ المباشر : هو أن يتولى السارق أخذ المتاع وإخراجه من الحرز بنفسه ، أو أن يؤدى فعله المباشر إلى إخراج المسروق من الحرز ، كأن يدخل الحرز فيحمل المسروق أو يلقى به إلى الخارج أو أن يدخل يده فى الحرز فيأخذ المسروق أو يلتقطه بمحجن أو أن يبطر جيبا فيسقط منه المال أو ينقب حرزا فيه طعام أو حب فينثال منه إلى الخارج .

والقاعدة عند جمهور الفقهاء أنه كلما أدى فعل السارق المباشر إلى إخراج المسروق من الحرز فإن شروط الأخذ خفية تعتبر تامة ويقطع السارق فى السرقة[1] ، إلا أن بعض الفقهاء يجعل لهذه القاعدة استثناءات سنتحدث عنها فيما بعد .

أما إذا ضبط السارق قبل أن يخرج المسروق من الحرز ، أو قبل أن يؤدى فعله إلى إخراجه فلا قطع عليه إلا فى رأى الظاهريين وحدهم ، لأنهم يعتبرون السرقة تامة بمجرد تناول الجانى للشىء المسروق .

وأساس الفرق بين الظاهريين وغيرهم ، أن الظاهريين لايعتبرون الحرز إطلاقا ولا يفرقون بين السرقة من حرز وغير حرز فالمسروق عندهم يصبح فى حيازة السارق بمجرد أن يتناوله ، أما بقية الفقهاء فيعتبرون الحرز ، ولهذا اقتضى منطقهم أن لا تتم السرقة إلا بالإخراج من الحرز .

وإذا ضبط السارق بعد إلقاء المتاع المسروق خارج الحرز وقبل أن يخرج من

---

(١) شرح الزرقانى ج ٨ ص ٩٨ – شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢٤١ – المهذب ج ٢ ص ٢٩٧ – المغنى ج ١٠ ص ٢٥٩ – شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٧

الحرز لأخذه ، فيرى أبو حنيفة أن الأخذ لم يتم لأن المسروق وإن كان قد أخرج من الحرز ومن حيازة المجنى عليه إلا أنه لم يدخل فى حيازة السارق الفعلية ، أو لأن يد السارق لم تثبت على المسروق فلا يعتبر فى حيازته فعلا[١] ، ولكن الرأى الراجح فى المذهب على اعتبار الشىء فى حيازة السارق حكما بإلقائه مالم تكن هناك يد معترضة : أى شخص آخر يضع يده على الشىء[٢] وهم متفقون على قطع السارق فيما ألقاه خارج الحرز ثم خرج فأخذه ولا يخالفهم فى هذا إلا زفر . وقد بينا سبب خلافه من قبل .

ويرى بقية الأئمة ومعهم الشيعة الزيدية أن الشىء المسروق يدخل فى حيازة السارق حكما بمجرد إلقائه إلى خارج الحرز ، وأن الحيازة الحكمية تكفى لاعتبار الأخذ تاماً كالحيازة الفعلية سواء بسواء ، فإذا ألقى السارق بالمسروق خارج الحرز فقد تمت السرقة سواء خرج السارق فأخذه أو وجد غيره قد استولى عليه ، وسواء ضبط السارق قبل خروجه من الحرز أم لم يضبط ، إلا أن مالكا تردد فى اعتبار السرقة تامة فى حالة ضبط السارق داخل الحرز بعد إلقاء المسروقات خارجه ، ولكن فقهاء المذهب على اعتبار السرقة تامة[٣] .



وإذا أخرج السارق المتاع المسروق من بعض الدار إلى ساحتها فلا يعتبر الأخذ تاما ، لأن الدار جميعها حرز واحد ، ولأن المتاع لم يخرج بعد من الحرز ، ولا يخالف هذا إلا الظاهريون ، لأنهم لا يعتبرون الحرز . والسرقة تتم عندهم بمجرد تناول السارق للشىء المسروق ولو لم يبرح مكانه .

أما إذا كانت الدار مكونة من بيوت أو غرف مستقلة يعتبر كل منها مسكناً مستقلا ، فالأخذ من أحد البيوت أو الغرف يعتبر تاماً إذا أخرج السارق المتاع المسروق إلى ساحة الدار المشتركة أو ضبط فيها ومعه المسروقات ، لأن كل بيت أو غرفة حرز مستقل وليس له علاقة بساحة الدار ، فإذا أخرج السارق المسروقات إلى ساحة الدار فقد أخرج المسروق من حرزه[٤] .

وإذا استهلك الجانى الشىء أو أتلفه داخل الحرز فهو متلف للشىء لا سارق له ،

---

(١) بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٦٥

(٢) شرح فتح القدير جـ ٤ ص ٢٤٤

(٣) المدونة جـ ١٦ ص ٧١ — شرح الزرقانى جـ ٨ ص ٩٨ — المهذب جـ ٢ ص ٢٩٧ — المغنى جـ ١٠ ص ٢٥٩ — شرح الأزهار جـ ٤ ص ٣٦٧ .

(٤) نهاية المحتاج ثامن ص ٤٣٩ — المهذب جـ ٢ ص ٢٩٧ — المغنى جـ ١٠ ص ٢٦٠ — كشاف القناع جـ ٤ ص ٨٠ — بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٦٦ شرح فتح القدير جـ ٤ ص ٢٤٣ شرح الزرقانى جـ ٨ ص ١٠٠ — مواهب الجليل جـ ٦ ص ٣٠٨

فأما إذا خرج بشىء منه بعد استهلاكه أو إتلافه فهو سارق لما خرج به إذا بلغ نصاباً وتقدر قيمة المسروق بما خرج به لا بما أتلفه ، وهذا هو الرأى فى مذهب مالك والشافعى وأحمد ، وبه تأخذ الشيعة الزيدية [1]

ويرى أبو حنيفة ومحمد نفس الرأى ، ولكن أبا يوسف يرى أن من أتلف الشىء داخل الحرز ثم خرج بما قيمته نصابا مما أتلف فإنه لا يقطع ، لأنه بالإتلاف ضمن قيمة الشىء ، والمضمونات تملك عند أداء الضمان أو اختياره من وقت الأخذ فلو ضمن السارق قيمة المسروق لملكه من وقت الأخذ ، فإذا قُطع قُطع فى ملك نفسه [2] .

وإذا ابتلع الجانى المسروق داخل الحرز فيفرقون بين ما يفسد بالابتلاع كالطعام والشراب وبين ما لا يفسد به كالجواهر والنقود ، فأما ما يفسد بالابتلاع فلا يعتبر ابتلاعه أخذاً : أى سرقة ، وإنما يعتبر إتلافا ويعاقب عليه بعقوبة التعزير ، وأما ما لا يفسد بالابتلاع ففيه آراء :



أولها : أن الابتلاع يعتبر استهلاكا للشىء فهو إتلاف لا سرقة ، وتظهر وجاهة هذا الرأى فى حالة ما إذا لم يخرج الشىء من جوف الجانى وبقى به ؛ وعلى هذا الرأى الأحناف وبعض الحنابلة .

ثانيها : أن الابتلاع يعتبر أخذاً كما لو أخرج السارق الشىء فى وعاء ، وتظهر وجاهة هذا الرأى فى حالة خروج المسروق من جوف الجانى ؛ وعلى هذا الرأى المالكيون [3] وبعض الشافعيين .

ثالثها : يفرق بين خروج المسروق بعد ابتلاعه وعدم خروجه ، فإن خرج فالفعل سرقة وإن لم يخرج فالفعل إتلاف ؛ وعلى هذا الرأى جمهور الشافعيين [4] والحنابلة .

وإذا استهلك الجانى أو ابتلع بعض الشىء ثم خرج ببعضه الباقى فهو متلف لما استهلك أو ابتلع إن كان الشىء مما يفسد بالابتلاع ، وهو سارق لما خرج به من الحرز إذا تمت فيه شروط الأخذ خفية مع مراعاة وجوه الخلاف والآراء التى سبق عرضها .

***

(١) المغنى جـ ١٠ ص ١٦١ — المهذب جـ ٢ ص ٢٩٧ — أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٣٨ — مواهب الجليل جـ ٦ ص ٣٠٨ — شرح الأزهار جـ ٤ ص ٣٦٤

(٢) شرح فتح القدير جـ ٤ ص ٢٦٤ — بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٧٠ ، ٧١ ، ٨٤

(٣) شرح الزرقانى جـ ٨ ص ٩٩

(٤) أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٤٨ — المهذب جـ ٢ ص ٢٩٧ — المغنى جـ ١٠ ص ٢٦١

وأما إذا كان للاخراج من الحرز أهمية فى بيان الأخذ التام ، فإن له أهمية كبرى فى حالة تعدد الجناة لأن القاعدة فى الشريعة أن عقوبة القطع على من أخرج الشىء من حرزه ، أما من لم يخرجه فعليه التعزير .

نظرية الهتك المتكامل : وإذا كان السارق واحداً فنقب الحرز كما لو كان منزلا مثلا وأدخل يده فى النقب وأخذ المتاع ، أو مد قصبة أو محجناً فأخذه به ، فيرى أبو حنيفة أن الأخذ لم يتم لأن السارق لم يدخل الحرز ، وهتك الحرز هتكا متكاملا شرط لتكامل الجناية .

ولا يتصور تكامل الهتك فيما يمكن الدخول فيه إلا بالدخول فعلا ، أما مثل الصندوق والغرارة فلا يمكن الدخول فيهما فالأخذ التام منهما باليد دون دخول يعتبر هتكا متكاملا .



وتسمى هذه النظرية فى مذهب أبى حنيفة بنظرية الهتك المتكامل (١) .

ولكن فقهاء المذاهب الثلاثة ومعهم أبو يوسف من أصحاب أبى حنيفة والشيعة الزيدية يرون الأخذ تاما سواء دخل السارق الحرز أو لم يدخله لأن ركن السرقة هو الأخذ من الحرز وليس دخول الحرز ؛ فكلما أمكن الأخذ من الحرز دون دخوله فهو أخذ تام (٢) .

« يتبع »

---

(١) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٦

(٢) المهذب ج ٢ ص ٢٩٧ ، أسنى المطالب ج ٤ ص ١٤٧ ، المغنى ج ١٠ ص ٢٥٩ ، كشاف القناع ج ٤ ص ٨١ ، شرح الزرقانى ج ٨ ص ٨٠ ، مواهب الجليل ج ٦ ص ٣١٠ شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢٤٥ ، شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

أيها المحلفون !

لا . . . الله لا الملك

(٢)

ثم تابع مولانا محمد على مرافعته[1] :

« لقد تعرض القاضى لمعتقدات بعض الطوائف فافترض فئة من الهندوك تعتقد بتقديم القرابين البشرية . وكذلك قال المدعى العام إننا منقسمون على أنفسنا طوائف وشيعاً يستحكم بينها النزاع وكل تدعى الحق لأهلها !

لا مجال هنا أيها السادة لتتبع الحق أو الفساد فى العقائد ، ثم إن العقيدة التى نحيا بها ليست عقيدتنا وحدنا ؛ إنها عقيدة كل مسلم . . . وهبوها عقيدة طائفة معينة فهل تقصدون أن نداء الملكة سنة ١٨٥٨ (فى حماية العقائد) قد اشترط أن يتفق ثلاثمائة مليون من البشر فى الهند مع أهل الأرض والسموات ، وأهل الكواكب السيارة ، وسكان القمر وقاطنى المريخ ، كل أولئكم لا بد أن يتفقوا على العقيدة الصحيحة حتى يقدم النداء حمايته ؟ ! إنه لا داعى للتفكير فى حماية مثل هذه العقيدة !

ليست هذه القضية قضية اعتقاد فرد ما ، أو فكرة عدد محدود من المسلمين — وإن كان لا يسوغ لكم مجال المساس بالمشاعر الدينية لجماعة مهما قل عدد أفرادها — إنها قضية هذا الدين الإسلامى ؛ فما من فرد يدعى أنه مسلم يستطيع تخطى حدود هذا الكتاب (مشيراً إلى القرآن الكريم) انظروا إلى هذه الترجمة الإنجليزية : هذا كتاب ملىء بالمعانى المكررة ، ولا يتجاوز ما بين دفتيه خمسمائة صفحة ، وهو مع ذلك يشكل المصدر الرئيسى لقانوننا الدينى ، وأود هنا أن أوضح ذلك حتى لا أدع مجالا لسوء الفهم ، فينبغى أن تعلموا من أين تستقى تعاليم الإسلام . إن أصل الدين كله تحويها دفتا هذا المجلد الدقيق ؛ ثم تأتى بعده فى الدرجة الثانية أحاديث الرسول ؛ وبالنسبة لذلك المصدر الأصيل (مشيراً إلى القرآن الكريم) ليس هناك فى المسلمين من يختلف حول صحة مقطع واحد فيه ؛ ولذا تجدون أن هناك أساسا صخريا راسخا لعقيدتنا لا أثر للخلاف بين وجهات النظر حياله . أما أحاديث النبى فإنه لو روى لنا حديث بسنده إلى الصحابة عن رسول الله فكان مخالفاً لأى أمر مما ورد فى هذا الكتاب

---

(١) نشر القسم الأول من هذه المرافعة مع المقدمة فى « المسلمون » العدد الأول . السنة الثانية . ص ٣٩

فليس هناك فى المسلمين من يقبل ذلك الحديث . فإننا لا نقبل ما ينسب إلى الرسول إن كان مخالفاً للقرآن ، أما إذا كان مفسراً له أو مفصلا لمجمله فعلينا عندئذ قبوله . .

إنكم عند تسجيل المتطوعين تأخذون عليهم تعهداً كتابياً وتلزمونهم بقسم مخصوص ، وها كم اللائحة . (مبدياً اللائحة) . فى هذه اللائحة تجدون هذا السؤال : «هل تتعهد بالذهاب حيثما تؤمر فى البر والبحر ؟ . . . .» وعلى كل جندى حين يتقدم متطوعاً للجندية أن يجيب بالإيجاب على هذه الأسئلة ويمضى اللائحة . فلنفرض أن الرجل هندوكى وأن الضابط أمره أن يذبح بقرة ليجهز له لحمها . إنه يرفض ذلك ولا ريب ، ويتلو له شواهد من كتابه المقدس ، وليس هناك فقرة من قانون العقوبات الذى بين أيديكم تمكن القاضى أو المحلفين ليقرروا أن هذا الرجل مذنب تنفذ عليه العقوبة لأنه يتصرف وفقا لتعاليم دينه . قولوا بإمكان ذلك حتى أكف فأجلس ! . . . كلا أيها السادة ، عليكم أن تكتبوا على كل فقرة فى الدستور الجزائى ، وعلى كل قانون ، تلك العبارة المحببة التى يستعملها المشرعون : « دون إجحاف » أى دون إجحاف بمعتقدات الرجل الدينية .



قد تقولون بأن هناك من العادات المستهجنة مالا يمكن السماح بها ، وهنا عليكم أن تبينوا أى العادات تبيحون ، وما هى الشروط التى يُنال تسامحكم حين توفرها . إنه حق القتل لا يعد قتلا إن كانت تعاليم الدين تأمر به ، وقد أعطى النداء حماية القانون لتلك الديانة ، وقد تقولون إن فى هذه البلاد الكثير من الديانات والمذاهب ، إذن فعليكم أن توضحوا الشروط التى لا بد من توفرها فى الديانة حتى تستحق الحماية ، فإذا أوفى بها المواطن يعتبر موالياً ، وكل من تسول له نفسه الخروج على هذا الولاء إما أن يُنفى من هذه البلاد ، أو أن يطردكم لينعم بالعيش فيها !

إن صاحبى (المدعى العام) كان أخبركم بأننا قوم فى غاية الإخلاص ، وأننا صرحاء لا نعرف المواربة . إننى أشكر له هذا الثناء ، وإنه إن كان أقرّ به لحاجة فى نفسه فإنى سأحاول الاستفادة منه لبلوغ مأربى أيضاً .

أيها السادة ، إنكم ستعلمون الآن أننا لسنا القوم الذين يسهل إرهابهم ليعمدوا إلى الكذب حتى يتفادوا القصاص إن كنا نستحقه بموجب هذه البيّنات التى بين أيديكم ، وكلها تافه لا قيمة له ، وإننى لن أشغلكم بتوافه الأمور . ومحور القضية كلها : هل يعطى نداء الملكة الحرية للديانة الإسلامية أم يستثنيها ؟ . فإذا كنا نطلب من الجندى المسلم أن يتخلى عن خدمته فى الجيش البريطانى وأن يأبى التطوع ويطلب من الآخرين

أن يفعلوا ذلك ، ونعلن ذلك ونثبته من القرآن فإننا فى تلك الحالة لا نكون مذنبين ولا يمكنكم معاقبتنا ؛ لحيث لا يخالف : انون العقوبات القرآن يسرى مفعوله ، فإن خالف القرآن فقانون العقوبات لغو فارغ .

إن القاعدة العامة تقتضى أن يحاكم الأشخاص فرادى ، وأن تبحث التهم واحدة واحدة كذلك ، وإلا فقد يتأثر القاضى والمحلفون فيميلون بأحكامهم . إنى لا أعلم سبباً لهذا الخلط فى الاتهام إلا أن يكون ممثلو التاج قد اتفقوا على مؤامرة (ضحك) لحشدوا هذاالعدد العديد من مواد القانون ليشتبه الأمر على الجميع ، ولا أدرى إن كان منكم من فهمها بوضوح . أما من جهتى ، فلم أستطع أن أفهم على وجه التحديد ماذا كان الاتهام الأول وكذلك الثانى ، وما الذى هو من شأن القاضى وما الذى هو من اختصاصكم كمستشارين . كل ذلك لم يتضح لى حتى اليوم . وإننى لما أحضرت إلى هنا من والتير (waltair) سألنى واحد من الشرطة الذى كانوا يخفروننى فى القطار الخاص عن التهمة التى أخذت بها فلم أدر بم أرد عليه ، ولـكننى أخبرته أن لائحة اتهامى تستند إلى المواد ١٢٠ و ١٣١ و ٢٠٥ و ١١٧ فعلق الشرطى ساخراً بقوله : « إنهم يحشدون من المواد مايشاءون ، وهى على كل حال مواد من صنع محلى » (ضحك) .



لست أدرى إن كان منكم أيها السادة من لعب البلياردو .. تستخدم فى هذه اللعبة كرات ثلاث ، وتربح بأن تضرب كرتك ضربة بحيث تصيب بها الأخريين ، أو تصيب إحداهما ثم تسقط فى إحدى الحفر المعدة فى منضدة اللعب ، أو أن تدفع بهما إلى الحفر . وقد يتفق أن يكون وضع هذه الـكرات (المنحوسة) على المنضدة بشكل تحار معه كيف تصنع حتى تنجح الضربة ؛ وهذه الحالة تحصل عادة بصورة مزعجة للمبتدئين على الخصوص . ونصيحة الخبراء حينئذ أن يقولوا : اضرب بقوة ودع النتيجة للحظ والمصادفة ! .. (ضحك) وليس بمستبعد أن يكون الـكسب بذلك ؛ وهى فى نظر خصمك رمية من غير رام ، وهى ضربة فى غاية الصعوبة طبعاً فى نظره (ضحك) .

ذلك أيها السادة فى الواقع عين مافَعَلَتْهُ النيابة بهذه الاتهامات . لقد ضربت بقوة ، وهى تعتمد عليكم وعلى القاضى فى الـكسب ، فقد تصيب من هذه المواد العديدة واحدة أو اثنتان ! ! (ضحك) .

لقد عرفت بالصراحة ، فإننا قوم جد صرحاء ، ولـكم أن تتأكدوا أننا صادقون كذلك . وفيما يختص بأية قرارات كانت لتعلن بها القوات المسلمة المسلحة فى الهند — حتى مايختص منها بتعاليم الإسلام — فليس أمامكم من الاتهامات ماهو أكبر من

ذلك القرار . بيد أنه فى الوقت الذى يدعى فيه المرء بأنه مسلم ، عليه أن يلتزم ويخضع لكل ماينص عليه القرآن الكريم ؛ فإنى إذا أعرضت عن آية واحدة منه ، فإنى حينئذ لا أكون مسلماً ، بل قد أكون شر الخاطئين ، وقد أبلغ الغاية فى الإثم ، غير أنى مادمت لا أنكر شيئاً قط من هذا الكتاب فإنى لا أزال أعد من المسلمين : ولكن من منذ اللحظة التى أعرض عنه مهما كنت تقياً ، لا أكون مسلماً . إن كل ماتحويه دفتا القرآن يطالب المسلم بشرع القرآن نفسه أن يبلغه للناس كافة حتى غير المسلمين . خذوا مثلا صديقى الجليل هنا مولانا حسين أحمد صاحب . إنه حوارى مولانا المرحوم محمد الحسن صاحب شيخ الهند ، وقد كان قبض عليه فى الحجاز حيث أمضى من عمره عشر سنين يدرس أحاديث الرسول فى المدينة ، فأخذ إلى مصر ثم إلى مالطه . فلو فرضنا أنه جلس خارج بيته وتلا من القرآن هذه الآية : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما »(١) ولنفرض أنه أثناء تلاوته مر جندى مسلم ؛ فهل تقولون بأن مولانا حسين أحمد قد اقترف جريمة بمقتضى المادة (٥٠٥) من قانون العقوبات الهندى ؟ إذا كنتم تقولون بذلك فلم كل هذا الكلام عن التسامح ؟ ! وافرضوا أن جندياً من مسلمى الهند دخل المسجد حيث يؤم الصلاة مولانا ، فهل يكون مولانا مجرماً إذا تلا تلك الآية فى الصلاة بحضوره ؟

وهاكم قضية أخرى : جندى يأتى إليه فيقول : (أريد يامولانا أن أعرف حكم الإسلام فى هذا الأمر : إننى مطلوب للسفر إلى « ميسوبوتاميا » للقتال ضد الخلافة ، فهل يحل لى أن أذهب فأقاتل المسلمين ؟) فيجيب مولانا إن ذلك غير جائز ، لأنه إن أفتى بجوازه يصبح كافراً ، وإن أمسك ولم يتكلم تلحقه لعنة الله والعالمين (٢) . ولذلك يتحتم عليه أن يقول : « لا ، إن ذلك لايجوز » فإن واجبه كمعلم دينى عندما يأتيه من يستفتيه أن يوضح له بالصدق حكم الإسلام ، فإن لم يستطع خشية قانون العقوبات ، فإنها ههنا — والحق يقال — تتنزل اللعنة .

خذوا مثلا آخر : يسافر مولانا فى قطار فيصادف جنوداً مسلمين ذاهبين إلى «ميسوبوتاميا» لقتال جنود الخلافة أو من أعلن الجهاد من المسلمين ، فيعظهم مولانا بأن ذلك محرم فى الإسلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا ترجعوا بعدى

(١) سورة النساء : ٩٣

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : « إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » البقرة : ١٥٩

كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[١] فهل يحال بذلك بين مولانا وحماية القانون؟.
قد تقولون : لابأس بأن يجيب بذلك عندما يسأل عن حكم الإسلام كواعظ دينى ، ولكن ليس من واجبه أن يعتلى سطح المنزل وينادى من فوقه بذلك ، فإن عمله حينئذ يكون تحريضاً وإغراء تنطبق عليه المادة (٥٠٥) والمادة (١١٧) ...
وإنى أقول : إنه حق فى تلك الحالة تكون مؤاخذته من العسف الذى هو أبعد مايكون عن التسامح ، لأن القرآن يبين بوضوح حال من ينال الفوز فى الآخرة ممن يحق عليه العذاب الأليم ؛ واسمعوا هذه السورة القصيرة من القرآن حيث يقسم الله تعالى بالعصر فيقول : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

إن الشروط الأربعة التى تلزم المسلم حتى ينال الفوز والنجاة قد احتوتها هذه السورة ، وهى أقصر سورة فى القرآن : إن خلاص الإنسان مشروط بأن يعمل بمقتضى عقيدة الإسلام . ثم هل تظنون أن من يعتنق الإسلام فيقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت ولا يؤذى أحداً ، هل تظنون أنه بذلك يكون أهلا للنجاة والفوز يوم الدين ؟ كلا ! لأن القرآن يقول إن الخطوة الثالثة (بعد الإيمان والعمل الصالح) أن تبلّغ هذا الخير إلى كل إنسان ، وعليك أن تدعو لهذه العقائد ، فإنك لم تولد لتنجو بنفسك وإنما أوجدت هنا لتأخذ بيد من حولك ، ولذلك كان على المسلم القيام بهذه الواجبات الثلاثة : الإيمان بعقيدة الإسلام ، والعمل الصالح بمقتضى هذا الإيمان ، والدعوة إلى الإيمان بتلك العقيدة .

ولنفرض أن مسلماً يعتقد بأن قتل المسلم حرام فلا يقتل مسلماً ، ولكنه يترك غيره يفعل ذلك . مثل هذا المسلم قد لاينال النجاة . وإن هو لم يتقاعس ، ونهض يذكر الناس بأن ذلك حرام فقد لا ينال النجاة كذلك حتى يثبت على دعوته ويصبر ولو باء بالفشل . فإذا أخفق فى الدعوة وابتلى فيها بأحكام المادة (٥٠٥) والمادة (١١٧) ونصبت أعواد المشانق فماذا يطلب منه ؟ عليه أن يتجلد ويصبر ! إنه قد يشنق وربما يغرق أو يصلب ، ولكن الواجب هنا أن يثبت على دعوته ؛ وبذلك ينال الفوز العظيم وينجو من الخسران المبين ، ولايجوز له بحال من الأحوال أن يخالف من تنزيل الله حرفاً واحداً ، وعليه أن يلتزم به بكليته ، ويواجه به جميع الظروف .

« يتبع »

---

(١) رواه البخارى .

إذا هبت ريح الإيمان

(٢)

لسماحة الأستاذ السيد أبى الحسن الندوى

وكيل ندوة العلماء بالهند

رحمـــاء بينهم

— ١ —

تخاصم خادم يقال له لاهورى وهو رجل متواضع المظهر ، يخدم خيل المجاهدين ويعلفها مع رجل اسمه عنايت الله له هيئة ومكانة عند السيد الإمام وهو من رفقته السابقين ، وأخذت الرجل حدة ، ووكز لاهورى وكزة وقع منها على الأرض ، وصار يتقلب من الألم .

اتصل الخبر بالسيد الإمام واطلع على القضية فعنف عنايت الله خان وعذله عذلا شديدا ، وقال لعلك اجترأت على هذا لدالتك ومكانتك منى وحقارة الرجل وضعته ، فلا يغرنك هذا فأنت ولاهورى سواء عندى لافضل لأحد على الآخر ، وقد جاء الناس جميعا واجتمعوا هنا للدين فقط .

وأحال أمرهما على قاضى العسكر وقال له لا يأخذنك فيهما جنف أو مداهنة واحكم بينهما بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما .

كان الأمر جليا واضحاً ، فكان للاهورى أن يقتص من عنايت الله ويكزه كما وكزه فإن الجروح قصاص ، ولكن خاف الناس الشر وتخوفوا أن تكون للقصاص عاقبة لاتحمد ، وعسى أن تأخذ عنايت الله الحدة فيثور عليه ويبطش به ثانية ويحدث فتنة الناس فى غنى عنها .

اجتهد الناس أن يتنازل لاهورى عن حقه ، ويسامح غريمه حسبة لله تعالى وتفاديا من الشر ، وأراد القاضى أن يقنعه واجتهد الناس أن يفهموه فقالوا له إذا عفوت عن صاحبك وتنازلت عن حقك كان لك عند الله أجر عظيم ؛ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، أما لو أخذت حقك كنت وصاحبك سواء ولم تستحق الأجر والشكر .

قال لاهورى فى بساطة ولو أخذت بحقى واقتصصت من صاحبى أكان علىّ وزر ؟.

قالوا لا ! بل كل من عند الله ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل .

قال لاهورى : إذن آخذ حقى وأقتص من صاحبى .

هنالك يئس الناس وقطعوا الرجاء وأوقف القاضى عنايت الله أمام لاهورى وقال للاهورى دونك الرجل فاضربه كما ضربك واقتص منه .

قال لاهورى أحق أن أضربه كما ضربنى وأقتص منه ؟

قال القاضى نعم .

واضطرب الناس وأيقنوا أن لاهورى ضاربه ومقتص منه .

قال لاهورى اشهدوا أيها الناس أن القاضى قد أعطانى حقى ومكننى من غريمى وقد قضى ماعليه وهأنذا متمكن من خصيمى لايمنعنى من القصاص أحد ولا يحول بينى وبينه شىء ولا أخاف أحداً .

ولكن اشهدوا أيها الإخوان أنى عفوت عن أخى وتركت حقى حسبة لله تعالى وابتغاء رضوانه .

تقدم لاهورى وعانق عنايت الله خان وضمه إلى صدره وصالحه ، وهتف الناس مرحى مرحى ، وحياك الله يالاهورى وبياك فقد عملت عمل الرجال ، وصنعت صنع الأبطال .

— ٢ —

نريد أن نوليك يا أستاذ توزيع الحبوب فى عسكر المسلمين !

هكذا خاطب السيد الإمام رجلا نحيف الجثة قد أضناه المرض اسمه الشيخ عبد الوهاب من لكهنؤ ..

قال الشيخ : أنا ياسيدى مصاب بأمراض كثيرة وأجمع القرآن فى هذه الحال ، والعمل شاق عسير ذو خطر لاأستطيع أن أقوم بأعبائه فلو رأى السيد الإمام أن يسامح العبد لفعل .

سكت السيد هنيهة ثم قال له تشجع يا أخى وتوكل على الله وشمر ذيلك لخدمة الإخوان المسلمين ، وسأدعو لله تعالى وأرجو أن يشفيك ويرزقك صحة وقوة لجمع القرآن فى خلال هذه الخدمة .

فرح الشيخ وصار يؤدى وظيفته بأمانة ونشاط ، ورضى الناس بأمانته ونشاطه ونصحه للمسلمين وشفقته عليهم وأثنوا عليه خيراً ، وبرىء الشيخ من علله وأسقامه وقوى وسمن وجمع القرآن فى هذه المدة .

وقابله السيد الإمام ذات يوم وقال له فى فرح وسرور : ها يا أستاذ إن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليك بصحة وقوة ووفقك لجمع القرآن .

قال الأستاذ نعم يا سيدى إن الله تعالى قد أجاب دعاءك وأرجو أن تدعو لى بأن يثبته الله فى صدرى فلا أنساه وأوفق أن اقرأ عليك مرة فى التراويح .

قال السيد سأدعو إن شاء الله وأرجو من فضل الله سبحانه أن يثبته فى صدرك فلا تنساه ، وكان هذا أجرة لك من الله سبحانه على خدمتك للمسلمين وإخلاصك ونصحك فى هذا العمل الجليل .

وكان الشيخ عبد الوهاب يتلو القرآن ويوزع الحبوب والدقيق فى وقت واحد ولا يزيد ولاينقص فى النصيب ولايخطىء .

وبينما كان الشيخ يوزع الدقيق فى يوم من الأيام إذ جاءه إمام على العظما بادى وقد جاء فى عسكر المجاهدين حديثاً وكان جسيما قويا فتقدم وقال اعطنى نصيبى ، قال الشيخ عبد الوهاب اصبر يا أخى قليلا حتى يأتى دورك ، وهذا دور غيرك ، ولم يتأخر الرجل وأخذه طيش الشباب فدفع الشيخ بقوة فسقط الشيخ على الأرض .

رفعه الناس من الأرض وغضب القندهاريون الذين كانوا هنالك وكادوا يسطون بإمام على ولكن حال الشيخ بينهم وبين إمام على وقال هو أخى وقد دفعنى فلماذا تضربونه أنتم .

إحدى يدىَّ أصابتنى ولم ترد

سكت الناس ونما الخبر إلى السيد الإمام فسأل الشيخ عبد الوهاب عن القصة فقال ياسيدى هو رجل صالح جاء يطلب نصيبه ، فقلت له انتظر حتى يأتى دورك وكان فى عجل فاصطدم بى من غير قصد ووقعت .

وسمع إمام على كلمة الشيخ عبد الوهاب فخجل ، وجاء إلى الشيخ عبد الوهاب واستسمحه وصالحه .

من طلب الآخرةَ طلبته الدنيا حتى تُوَفيَه رزقه فيها ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها .

« سهل بن هارون »

من القديم

في الإسماعيلية

للإمام الشهيد حسن البنا

> « فى هدوء الإسماعيلية الجميل ، ومن أبنائها المباركين البررة ، تكونت أول نواة لتشكيلات الإخوان المسلمين وشعبهم »
>
> حسن البنا



في الطريق إلى الإسماعيلية :

في يوم الاثنين الموافق ١٩ سبتمبر سنة ١٩٤٧ — ويؤسفنى أن لا أذكر التاريخ الهجرى لهذا اليوم — اجتمع الأصدقاء ليودعوا صديقهم المسافر إلى الإسماعيلية ، ليتسلم عمله الجديد الذى أسند إليه ، وهو التدريس بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية .

ولم يكن هذا الصديق يعرف عن الإسماعيلية شيئا كثيراً من قبل ، إلا أنها بلد ناء بعيد فى شرق الدلتا الأقصى ، يفصله عن القاهرة فضاء فسيح من رمال الصحراء الشرقية ، وتقع على بحيرة التمساح المتصلة بقناة السويس ، وأخذ الصديق يستقبل أصدقاءه ليودعهم ويودعوه ، وأخذ الأصدقاء يتجاذبون أطراف الحديث ، وكان فيهم محمد أفندى الشرنوبى ، وهو رجل ذو تقوى وصلاح ، فكان مما قال : « إن الرجل الصالح يترك أثراً صالحا فى كل مكان ينزل فيه ، ونحن نأمل أن يترك صديقنا أثراً صالحا فى هذه البلد الجديد عليه » وأخذت هذه الكلمات مكانها من نفس الصديق المسافر ، وانفض الجمع ، واستقل المسافر قطار الضحى ، ليصل إلى الإسماعيلية ظهراً حيث يواجه لأول مرة حياته العملية وجها لوجه .

وسار القطار والتقى المسافر بزملاء له ، عينوا حديثا فى نفس المدرسة التى عين فيها ، وكان منهم على ما يذكر : محمد بهى الدين سند أفندى ، وأحمد حافظ أفندى ، وعبد المجيد عزت أفندى ، ومحمود عبد النبى أفندى .

التقى المسافر بزميل مدرس بمدرسة السويس الابتدائية ، ينتمى إلى الطريقة

الحامدية الشاذلية ، ويفضى إليه المسافر بآماله فى الإصلاح الإسلامى والدعوة إلى الإسلام ، ثم يكتب عنه فى مذكراته هذه العبارة : « هذه الفرصة القصيرة لا تكفى للحكم على نفسية الرجل وروحه وإن بدا لى أنه إنسان يعيش ليحفظ حياته بعمله . . . يسعد بعقيدته فى ربه ، ودينه وشيخه ، ويسر بما يرى حوله من مظاهر احترام الإخوان له » ، وإذن فقد كان هذا المسافر لا يفكر فى أن يعيش ليحفظ حياته بعمله فقط ، وإذن فقد كانت عقيدة المسافر لا ترضى أن تكون قاصرة عليه وحده ، وإذن فقد كان همّ هذا المسافر شيئاً آخر غير ما يرى من مظاهر احترام الإخوان له .



وصل القطار إلى محطة الإسماعيلية وتفرق المسافرون كل إلى وجهته ، وأشرف صاحبنا على هذا البلد الجميل ، الذى كان يبدو جماله كأروع ما يكون إذا نظر إليه المسافر من فوق قنطرة سكة الحديد ، واستهوت هذه المناظر قلب القادم الجديد ، وأخذت بلبه ، فوقف هنيهة ، وسبح لحظة فى عالم من الخيال والمناجاة ، يحاول أن يقرأ فى لوح الغيب ما كتب له فى هذا البلد الطيب ، ويسأل الله تبارك وتعالى فى حرارة وصفاء ومناجاة ، أن يقدر له ما فيه الخير ، وأن يجنبه ما فيه الشرور والآثام ، فإنه يحس من أعماق قلبه ، أنه لا بد له فى هذا البلد من شأن غير شأن هؤلاء الغادين الرائحين من أهله وزائريه .

فى الفندق :

ويصل المسافر إلى الفندق فيودع فيه حقيبته ، وليس معه غيرها ، ويزور المدرسة التى سيعمل فيها ، ويلقى الناظر والمدرسين ، ويتناول الجميع أطراف الحديث ، ويتعرف هذا الضيف إلى صديق له قديم ، هو الأستاذ إبراهيم البنهاوى أفندى المدرس القديم بالمدرسة ، ويرغب أن يرافقه فى مسكنه ، فإذا بهذا الصديق يؤثر أن يسكن فى « بنسيون » ولا يرى صاحبنا الضيف بأساً فى موافقته على ما يرى ، ويحتل الصديقان غرفة واحدة فى نزل السيدة « أم جيمى » الإنجليزية ثم فى نزل السيدة « مدام بيينا » الإيطالية .

بين المسجد والمدرسة :

ويقضى هذا المدرس الجديد وقته بين المسجد والمدرسة والمنزل ، لا يحاول أن يختلط بأحد ولا أن يتعرف إلى غير بيئته الخاصة من زملائه فى وقت العمل ، أما وقت فراغه فهو مكب فيه على رياضة ، أو دراسة لهذا الوطن الجديد ، من حيث أهله

ومناظره وخصائصه ، أو مطالعة أو تلاوة ، لا يزيد على ذلك شيئاً مدى أربعين يوما كاملة ، ولم تزايله لحظة من اللحظات كلمة الصديق المودع :

« إن الرجل الصالح يترك أثراً صالحا في كل مكان ينزل فيه ، وإنا لنرجو أن يترك صديقنا أثراً صالحا في هذا البلد الجديد عليه » .

خلاف ديني :

وفي المسجد استطاع هذا النزيل الجديد ، أن يعرف كثيراً من أنباء الإسماعيلية الدينية ، وظروفها الاجتماعية ؛ وقد عرف فيما عرف ، أن هذا البلد الذي تغلب عليه النزعة الأوربية إذ تحيط به المعسكرات البريطانية من غربيه ، وتكتنفه مستعمرة إدارة شركة قناة السويس من شرقيه ، وهو محصور بين ذلك ، ومعظم أهله يعملون في هاتين الناحيتين ، ويتصلون بالحياة الأوربية من قريب ، وتطالعهم وجوه الحياة الأوربية في كل مكان . . . هذا البلد ، مع هذا كله ، فيه شعور إسلامي قوي ، والتفاف حول العلماء وتقدير لما يقولون .



وقد عرف هذا النزيل فيما عرف أن مدرساً إسلامياً سبقه في هذا البلد وطلع على أهله بنظرات في الفكرة الإسلامية ، بدت غريبة أمام معظمهم ، ونشط لمقاومتها بعض علمائهم ، فنتج عن ذلك انقسام بين الناس وتحيز لآراء وأفكار لا تجتمع عليها القلوب ، ولا تنبني معها الوحدة المنشودة التي لا تتحقق بدونها غاية .

إلى القهاوي مرة ثانية :

فأخذ يفكر فيما يصنع ، وكيف يواجه هذا الانقسام ، وهو يرى أن كل متكلم في الإسلام يواجهه كل فريق بفكرته ، ويريد أن يضمه إلى جانبه ، أو أن يعلم على الأقل ، أهو من حزبه أو من أعاديه ، وهو يريد أن يخاطب الجميع ، وأن يتصل بالجميع ، وأن يلم شتات الجميع ؟ !

فكر طويلا في ذلك ، ثم قرر أن يعتزل هذه الفرق كلها ، وأن يبتعد ما استطاع عن الحديث إلى الناس في المساجد ؛ فالمسجد وجمهور المسجد هم الذين مازالوا يذكرون موضوعات الخلاف ، ويثيرونها عند كل مناسبة ، وإذن فليترك هذا النزيل المسجد وأهله ، وليفكر في سبيل أخرى يتصل بها بالنـــاس ، ولم لا يتحدث إلى جمهور « القهوة » في « القهوة » ؟ ؟ .

ساورته هذه الفكرة حينا ، ثم اختمرت فى رأسه ، وبدأ ينفذها فعلا ، واختار لذلك ثلاث « مقاهى » كبيرة ، تجمع ألوفا من الناس ، ورتب فى كل منها درسين فى الأسبوع ؛ وأخذ يزاول التدريس بانتظام فى هذه الأماكن . وقد بدا هذا اللون من ألوان الوعظ والتدريس الدينى غريبا فى نظر الناس أولا ، ثم ما لبثوا أن ألفوه وأقبلوا عليه .

كان المدرس دقيقا فى أسلوبه الفريد الجديد ، فهو يتحرى الموضوع الذى يتحدث فيه جيدا بحيث لا يتعدى أن يكون وعظا عاما : تذكيراً بالله واليوم الآخر ، وترغيبا وترهيبا ، فلا يعرض لتجريح أو تعريض ، ولا يتناول المنكرات والآثام التى يعكف عليها هؤلاء الجالسون بلوم أو تعنيف ، ولكنه يقنع بأن يدع شيئا من التأثير فى هذه النفوس وكفى . وهو كذلك يتحرى الأساوب فيجعله سهلا جذابا مشوقا ، خليطا بين العامية أحيانا ، ويمزجه بالمحسنات والأمثال والحكايات ، ويحاول أن يجعله خطابيا مؤثراً فى كثير من الأحيان ، وهكذا يتحايل دائما على جذب هذه النفوس ، باعثا الرغبة والشوق إلى ما يقول ، وهو بعد هذا لا يطيل حتى لا يُمل ، ولكنه لا يزيد فى الدرس على عشر دقائق ، فإذا أطال فربع ساعة ، مع الحرص التام على أن يوفى فى هذا الوقت معنى خاصا يقصد إليه ، ويتركه وافيا واضحا فى نفوس السامعين ، وهو حين يعرض فيما يعرض لآية أو حديث يتخير تخيراً مناسبا ، ثم يقرأ قراءة خاشعة ، ثم يتجنب التفاسير الاصطلاحية ، والتعليقات الفنية ، ويكتفى بالمعنى الإجمالى يوضحه ، والاستشهاد المقصود يشرحه .



كان لهذا المسلك أثره فى الجمهور الإسماعيلى ، وأخذ الناس يتحدثون ويتساءلون ، وأقبلوا إلى هذه المقاهى ينتظرون ، وعمل هذا الوعظ عمله فى نفوس المستمعين ، وبخاصة المواظبين منهم ؛ فأخذوا يفيقون ويفكرون ، ثم تدرجوا من ذلك إلى سؤاله عما يجب أن يفعلوا ليقوموا بحق الله عليهم وليؤدوا واجبهم نحو دينهم وأمتهم ، وليضمنوا النجاة من العذاب والفوز بالنعيم ، وابتدأ هو يجيبهم إجابات غير قاطعة جذبا لانتباههم واسترعاء لقلوبهم ، وانتظاراً للفرصة السانحة ، وتهيئة للنفوس الجامحة .

تعليم عملى :

وتوالت الأسئلة على المدرس من هذه القلوب المؤمنة الطيبة ، ولم يشف غليلها هذا الجواب المقتضب ، وألح نفر من الإخوان فى وجوب رسم الطريق التى يجب أن يسلكوها ، ليكونوا مسلمين ينطبق عليهم بحق وصف الإسلام ، فهم يريدون أن يتعلموا

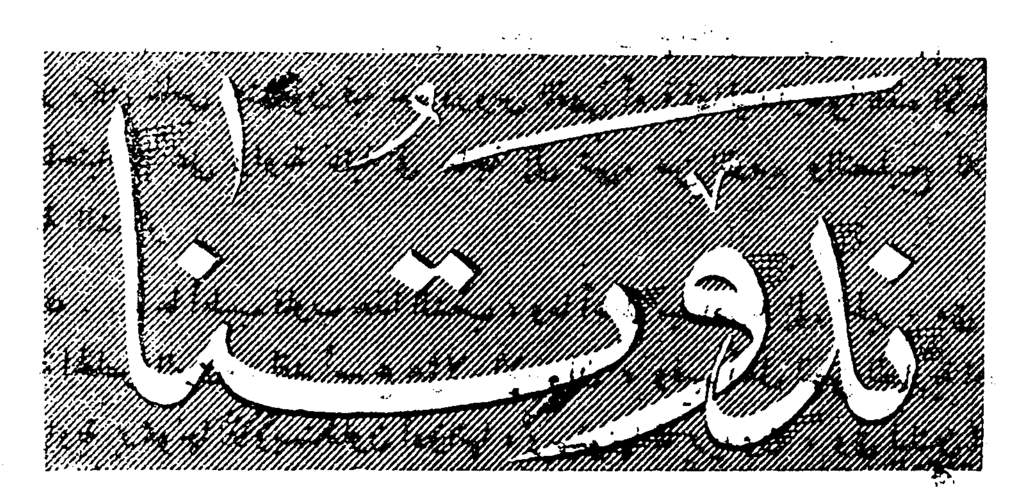
أحكام الإسلام بعد أن تحرك وجدانهم بشعور أهل الإسلام ، فيشير عليهم المدرس باختيار مكان خاص يجتمعون فيه بعد دروس المقهى أو قبلها ليتدارسوا هذه الأحكام ، ويقع اختيارهم على زاوية نائية في حاجة إلى شيء من الترميم والتصليح للاجتماع ولإقامة الشعائر .

يا لله . . . ما أطيب قلوب هذا الشعب ، وما أعظم مبادرته إلى الخير ، متى وجد الداعية المخلص البريء : لقد أسرع هؤلاء الإخوان ، وفيهم أهل المهن المعمارية المختلفة إلى الزاوية يرممونها ، ويستكملون أدواتها ، ويهيئونها لما يريدون ، وفي ليلتين اثنتين استطاعوا أداء المهمة على أكمل وجوهها ، وانعقد بالزاوية أول اجتماع .

كان المجتمعون حديثي عهد بالتعبد ، أو بعبارة أدق كان معظمهم كذلك ، فسلك بهم المدرس مسلكا عملياً بحتا : إنه لم يعمد إلى العبارات يلقيها ، أو الأحكام المجردة يرددها ولكن أخذهم إلى « الحنفيات » توا ، وصفهم صفاً ووقف فيهم موقف المرشد إلى الأعمال عملا عملا ، حتى أتموا وضوءهم ، ثم دعا غيرهم ، ثم غيرهم ، وهكذا أصبح الجميع يتقنون الوضوء عملا ، ثم أفاض معهم في فضائل الوضوء الروحية والبدنية والدنيوية ، وشوقهم بما ورد في مثوبته من الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويصلي ركعتين ، يقبل بقلبه ووجهه عليهما إلا وجبت له الجنة » .. يثير بذلك شوقهم ، ويرغبهم فيما ندبهم الله له .

ثم ينتقل بهم بعد ذلك إلى الصلاة شارحاً أعمالها ، مطالباً إياهم بأدائها عملياً أمامه ، ذاكراً ما ورد في فضلها ، مخوفا من تركها ، وهو في أثناء ذلك كله يستظهر معهم الفاتحة واحداً واحداً ، ويصحح لهم ما يحفظون من قصار السور ، سورة سورة ، مقتصراً في حديثه إياهم على الكيفيات المشربة بالترغيب والترهيب ، لا يحاول أن يفرع المسائل ، أو يلجأ إلى المصطلحات الغامضة ، حتى رقت للأحكام قلوبهم ووضحت في أذهانهم ، ولم تعد هذه الناحية الفقهية البحتة تبدو خشنة جافة .

« يتبع »



- « المسلمون » فى تاجال
- قتال
- تصحيح
- وحدة المسلمين
- إبراهيم بن أدهم



فى جلسة جميلة بمنزل الرجل الفاضل الأستاذ السيد على سونكر بجاكارتا ، تعرفت بالسيد محمد بن أحمد القانص ، من بلدة تاجال بأندونيسيا : وهى مدينة صغيرة بينها وبين جاكارتا ثلاثمائة وخمسون ميلا ، ولما عرف اسمى قال : أهلا « بالمسلمون » . . . سبحان الله ! إن مجلتك يا أخى تفعل فى نفوسنا فعل السحر ، وتبعث فينا حياة لم نحس مثلها فى مجلة بعد مجلة العروة الوثقى . فسألته عن عدد قراء « المسلمون » فى تاجال . فقال : إنها تأتى بانتظام إلى عشرة أشخاص ، ولكن قراءها أكثر من ذلك بكثير .

* * *

هكذا يستقبل المسلمون مجلتهم فى النواحى القاصية من أقطار الإسلام والحمد لله رب العالمين ، وهى منذ مولدها لم تكن مجلة شخص ، ولكنها مجلة فكرة هادية ؛ ولذلك فتح الله لها القلوب .

وفى رسالة من حلب الشهباء « سوريا » يقول أخونا العزيز فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبى غدة : « . . . أكتب إليكم فى كلمة وقعت مشكولة شكلا خاطئاً فى

« المسلمون » وأحسبني مشاركاً في الكتابة إليكم بها ، أو مسبوقاً ، ولكنها الغيرة على القرآن ، والتواصي بالحق الذي تعاهدنا عليه لقاء وافتراقاً .

جاء في العدد العاشر من « المسلمون » بصحيفة ٦٧ ، في مقال فضيلة الأستاذ المرشد رضوان الله عليه ورحمته آية « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . . » من سورة البقرة الآية ٢١٧ ، وشكل فيها لفظ قتال بضمتين متعانقتين ، وهذا الشكل خطأ ، والصواب في الشكل لهذا اللفظ الكريم « قتالٍ » بالجر كما هي التلاوة ، وقد يسبق لذهن العارفين العالمين بصحة التلاوة أن هذا الشكل صحيح من حيث ثبوته قراءة من القراءات المنقولة ، ودعت إليه سياقة المعنى المستشهد عليه . ولكن عند التأمل يبدو أن المعنى المستشهد عليه لا يتوقف على رفع « قتال » قطعا ، فما هو إلا الخطأ المطبعي فحسب ، فلهذا أشرت إلى هذا التصحيح ، ورجعت قبل الكتابة إلى التفاسير وكتب القراءات ، فرأيت بعض القراءات الشاذة جاء فيها « قتالٌ فيه » بالرفع وهي قراءة الأعرج كما في تفسير القرطبي (٣/٤٤) . وأجزم أن الإمام الشهيد رضوان الله عليه لم يقصد إليها أبداً ، فإنه لا موجب لذلك كما أسلفت . فأرجو تصحيح هذا الخطأ في عدد مقبل بالإشارة إليه ، مع التحرز عن وقوع مثله في آيات الله تبارك وتعالى ، والله ولي التوفيق والتسديد والسلام عليكم ورحمة » .



* * *

ونحن نشكر للأخ الفاضل غيرته على كتاب الله تعالى ، ووصاته الكريمة ، ونسأل الله أن يجنبنا الزلل ، وننتهز الفرصة لنعتذر عن الأخطاء المطبعية التي نجتهد لتلافيها والله المستعان .

وفي رسالة من فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد ناصف واعظ طهطا يقول :

« . . . لفت نظري وقوع سهو يسير في قصيدة « صنعه يد الإله » المنشورة في العدد الأول من السنة الثانية ، بعضه من الطبع وبعضه — فيما أظن — من الشاعر وجاء العدد الثاني خالية من الإشارة إليه ، وإليكم بيانه :

١ — ينبغي أن تقصر كلمة « الفضاء » أول الشطر الثاني من البيت الأول لأن القصيدة من الخفيف . . . ليستقيم وزنها فتقرأ « الفضا » .

٢ — كلمة (يسمَّى) في أول البيت العاشر يجب تخفيفها « يُسْمَى » للوزن أيضا .

٣ — «تَصنعُ» فى الشطر الثانى من البيت الثانى عشر منصوبة فتستبدل بالضمة فتحة

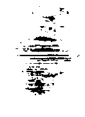
٤ — آخر بيت فى الصفحة التالية غير مستقيم وزن شطره الأول ويمكن ليستقيم أن يصاغ هكذا « وإذا جبريلُ يرى مثلما تبدو الخ » .

٥ — البيت الثامن فى صفحة ٩٥ لا يستقيم شطره الأول إلا بتغيير كلمة « فارتاع » بكلمة من معناها فنقول مثله « غطه جبريل فأوجس لما الخ » .

٦ — كلمة جبريل فى أول الشطر الثانى من البيت الثانى عشر من نفس الصفحة يجب قراءتها « جبرئيلُ » وهى لغة فى اسم ملك الوحى عليه السلام وكلمة « اقرأ » فى أول البيت نفسه يجب أن تقطع همزتها الأولى ليصح الوزن .

٧ — فى آخر بيت كلمة «واستلم» ، وهى خطأ فى مثل هذا الوضع لأن الاستلام هو اللمس فلو قال : « وتسلم ركب الخليقة الخ » لصح الوزن والمعنى جميعاً .

والسلام عليكم ورحمة الله



* * *

ونحن نشكر لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد ناصف دقة ملاحظته واهتمامه ، وهو محق فى ١ ، ٢ ، ٣ أما (٤) ، (٥) فشأنها شأن (٦) فى قراءة « جبرئيل » وبهذا يصح الوزن ، وهو كذلك محق فى قطع الهمزة فى كلمة « إقرأ » — أما (٧) فقد رجعنا فيها إلى الأستاذ القاضى محمد محمود الزبيرى فأجازها وطرب لها .

وفى رسالة مليئة من الأستاذ الفاضل توفيق فكره الحيى من الحكام السابقين من دير الزور قاعدة محافظة الفرات بسوريا ، يتحدث حضرته عن وحدة المسلمين فى عقيدتهم ورسالتهم وآلامهم وآمالهم ، ورد على الذين يزعمون أن المسلمين لا يزلون نياما لا يعون شيئاً مما حولهم ، وقال أن اليقظة بدأت ، وأن المستقبل مشرق وأهاب بالمسلمين إلى توحيد شملهم وتنظيم صفوفهم والثبات على الحق حتى يأتى نصر الله .

* * *

شكر الله للأخ الفاضل عاطفته وبارك همته وجمع شمل المسلمين على الخير .

ويقول السيد أبو عز الدين نجيب من جبلة (سوريا) .

« تحية من عند الله مباركة طيبة وبعد : فقد قرأت فى العدد العاشر من « المسلمون » نبذة عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أنه ترك الملك والولد وانقطع إلى الله تعالى . . الخ » وقد جئت بهذه المناسبة مستفسراً عن الحقيقة التالية :

إن إبراهيم بن أدهم له مقام فى مدينة جبلة على الساحل الغربى من سورية ويزوره الناس ويروى أنه دفن هنا ويستشهد صاحب هذا الرأى بروايات لذلك ، وأخيراً ومنذ آن غير بعيد حاضر بعض الأدباء عنه وذكر أنه لم يمت فى جبلة ، وأنه لم يأت الشام ولكنه بقى فى بلاد الحجاز ومنها انتقل إلى الرفيق الأعلى . ولما كانت الحقيقة قد أشكلت نرجو إعلامنا عن ذلك والله يحفظكم . .

* * *



الحقيقة يعلمها الله وحده ، وليس من السهل الوصول إليها ، وهناك مقام فى القدس يقال له الأدهمية بباب الساهرة ويزعم كثيرون أنه مدفون فيه : وأيّاً كان مكان قبره الصحيح فإنه رحمه الله قد مضى إلى ربه وبقيت العبرة من سيرته ، فلنوجه جهدنا إلى البحث عن هذه العبرة والاستفادة منها ، فذلك أبر به رضى الله عنه ، وأجزل فى مثوبة الله له ، وأسلم فى سلوك الطريق المستقيم إلى الله الذى كان يدعو إليه .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : —

« رحم الله امرأ أعان أخاه بنفسه وأشركه فى دعائه »

سعر الفائدة والربا

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة بالباكستان

(٣)

٥ — اقتصاد من غير ربا :

ليست مشكلة إيجاد اقتصاد لا فائدة فيه مستحيلة كما يزعم الكثير، ولكنها مشكلة معقدة عويصة على أنها صعبة فى وجوب تغيير طريقة استثمار رأس المال . فنحن نؤمن بأن انعدام الفائدة لن يعنى انعدام تكوين رأس المال، وهذا التغيير ستصحبه ثورة فى وسائل الاحتفاظ بالنقد وفى مسالك المال إذ المعلوم أن النظام النقدى الراهن يقوم على المصارف، وهو نظام تطور مع الزمن واتخذ شكله الحاضر وليس من السهل قطعا أن نبدله فى لحظة واحدة مهما التجأنا إلى أساليب الإصلاح الثورية ؛ إذن فلابد من التدرج والصبر واعتبار الزمن ذاته جزءا من العلاج .



وقبل أن نذكر اقتراحاتنا العملية للوصول إلى هذه الغاية نكرر أنه مالم توجد الدولة الإسلامية وتطبق الشريعة فى مختلف نواحى الحياة فسيكون من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — تطبيق الأحكام الاقتصادية، فذلك مخالف للمنطق الصحيح ناب عن روح التشريع « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » لابد أن يشعر المواطن بحقوقه وواجباته . حينئذ ستتضاءل هذه الصعوبات المادية التى تبدو عقبة جبارة عند المصلحين الاقتصاديين. والسر فى ذلك راجع إلى فلسفة الإسلام ذاته وإلى اختلاف المثل الأعلى فى الشريعة الحنيفة عنه فى الحضارة الأوروبية المادية : المادة لديهم غاية ولدينا وسيلة، والوطنية إيمان ولدينا خطيئة، والقيم الفردية تقاس بالمادة وعندنا تقاس بالتقوى، بل الاقتصاد عليها ينبنى على الأثرة والحياة لدينا تنبنى على الإيثار . وبعد كل هذا أو قبل كل هذا هناك فصل بين الدين والدنيا وهنا لا دنيا بلا دين .

إن استطعنا أن نطبق أحكام الشريعة فى نواحى الحياة المختلفة فسنزيل من أمامنا صعوبات جمة وستختفى أسئلة برمتها من تلقاء ذاتها . ستكون القروض الاستهلاكية ليست ذات بال إذ سيجد الفرد مأكله وملبسه ومسكنه وعلاجه وعلمه وعمله ، سيجد كل ذلك مؤمنا من قبل الدولة ، وفى الدولة الإسلامية سيطبق مبدأ « فى المال حق غير الزكاة » وستجد الدولة دائما وسيلة غير الاقتراض لتنفيذ مشروعاتها الإصلاحية .

وفى الدولة الإسلامية لن تكون وظيفة البنوك الرئيسية كما هى الآن : الإقراض بفائدة وخلق الائتمان ، بل ستكون أقرب ما تكون إلى ما تصوره الأستاذ هارود : تقديم الخدمات للمنتجين نظير أجر معلوم .

وفى النظام الإسلامى الصحيح لن يقبر مشروع إنتاجى لقلة رأس المال بيد المنتج إذ سيكون الإنتاج تحت إشراف الدولة ؛ فما كان غير ضرورى منه حذف ، وما كان ضروريا وجد ما يحتاجه من عون مادى وفنى .



وفى الدولة الإسلامية لن يكون هناك خطر على المقرضين لأن الدولة مسئولة عن دفع دين المدين إذا أعسر وكان حسن النية .

وأخيراً فإن الاستثمار والادخار فى الدولة الإسلامية سيكونان متأثرين بعوامل معنوية لا شبيه لها فى الدول المادية الغربية إذ المسلم الغنى لن يسمح له بالتنعم الترفى والظهور بمظهر « أغنياء الحرب » ولن يجد من فضلة ماله ما يفضله على غيره من البشر . حينئذ لن يجد أفضل من ادخار واستثمار فى إنتاج جديد يعود عليه وعلى مجتمعه بالخير لأن ذلك مقياس التميز ومعنى التقى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

بعد هذا نجمل الخطوات التى يجب أن نبدأ بها حتى نصل إلى اقتصاد إسلامى .

أولا : رسم نهج اقتصادى ينحصر بمقتضاه ما يجب أن يكون عليه الإنتاج فى الدولة ، بعدئذ تنشأ مؤسسة مالية ضخمة على غرار ما حدث فى انجلترا والولايات المتحدة وباكستان لتمول كل المشروعات الإنتاجية التى يُرى ضرورة إنشائها أو تشجيعها ، ويكون التمويل عن طريق شراء أسهم تطرح دائما للجمهور بقيمتها الاسمية . وظاهر أن الدولة ستتعهد بتغطية الأسهم المطروحة التى لم يتم اكتتاب الأفراد فيها .

ثانياً : وواضح أن مثل هذه المشروعات ستكون كبيرة الحجم . أما فى الصناعات الإنتاجية الصغيرة فخير سبيل هو إنشاء الجمعيات التعاونية على أن تمد الحكومة البنوك التعاونية بالمال اللازم دون فائدة على غرار ما هو حادث فى « نيوسوث ويلز » فى جنوب استراليا حيث تقوم هذه الجمعيات بتمويل كثير من الصناعات الصغيرة وصغار الزارعين دون

فائدة ، وحيث تزاول الجمعيات تسويق المنتجات نظير نصيب فى الربح ، ولا شك أن هذه الجمعيات يمكن أن تعمل بنشاط ونجاح فى الأوساط الزراعية والصناعية على السواء ، ونحن نعترف بأنها تحتاج إلى ثقافة وتعليم ، ولكن هذا ليس اعتراضاً جديا إذ المفروض أننا سنطبق هذا النظام فى مجتمع إسلامى أول كلماته : « اقرأ باسم ربك الذى خلق »

ثالثاً : تقوم الدولة بتسويق المحصولات الرئيسية ، وليس هذا بدعا فقد صار الاتجار الحكومى State Trading من المسائل المقررة فى الاقتصاد الحديث . وأهمية ذلك ترجع إلى أن أكثر الائتمان إنما يحتاج إليه فى تمويل التجارة وتبادل السلع فإن كانت التجارة الرئيسية بيد الدولة — والدولة دائما تخلق الائتمان — استطعنا أن نمحو سعر الفائدة من التجارات ، ولامشاحة فى أن الاتجاه الحديث يميل إلى أن يكون توزيع الضروريات من الأمور المعاشية من اختصاصات الحكومات حتى تيسر للناس أسباب العيش وتجنبهم احتكار المحتكرين والمتجرين .



ونحب أن نقرر هنا أن بعض البلاد المتقدمة استطاعت أن تنشئ من الجمعيات التعاونية شبكة واسعة تغطى أطراف البلاد ، وتمد الناس بحاجاتهم اليومية دون وسيط ولا ربح مغالى فيه ، وهذه الجمعيات لو مُوِّلت من الحكومات نظير حصة فى الأرباح لقضينا على القرض التجارى بفائدة قضاء مبرماً ، وتسمى هذه الجمعيات Multi-purpose Cooperative Societies وهى موجودة فى أكثر بلاد العالم ويزداد نشاطها يوماً بعد يوم .

وقد شاهدنا بعض عملها فى مصر إبان الحرب الماضية وما زالت تقوم بدور ملحوظ حتى اليوم ، ويمكن تشجيعها وإعادة تنظيمها على نطاق واسع واستخدامها فى تسويق ما تتولاه الحكومة من محصولات أو ما تستورده البلاد من الخارج .

رابعاً : إعادة تنظيم المصارف التجارية Commercial Banks وربطها بالمستوردين والمصدرين ، وذلك حتى تمدهم بالائتمان اللازم فى الحدود المرسومة . بيان ذلك أنه لو استطعنا أن نحدد وارداتنا (والواردات هى البند الذى يحتاج إلى الائتمان أكثر من غيره نظراً لارتباطه بالمورد الخارجى ولطول المدة بين طلب السلعة واستلامها) وهذا التحديد صار أمراً يسيراً نتيجة لما يتبع الآن فى العالم بأسره من نظام التراخيص Licences : لو حددنا المستورد فيمكن بسهولة إنشاء اتحادات تجارية تضم الحاصلين على رخص الاستيراد وهذا الاتحاد يتصل بالمصرف التجارى المخصص لهذه العمليات كلما احتاج المستورد إلى ائتمان ، وتفتح البنوك الاعتمادات اللازمة إما عن طريق المشاركة كأن تأخذ حصة ثابتة من المستورد لحسابها وتبيعها للاتحاد ، وإما نظير تحميل المستورد مصروفات فتح

الاعتماد — مع مراعاة نسبة الربح — وإما أن يكون الاعتماد ائتماناً تقدمه الحكومة إلى الاتحاد عن طريق المصرف كخدمة تؤديها الدولة لرعاياها . ولاشك أن فى الحالات الثلاث لن يحدث سوء تصرف أو إفراط فى طلب الائتمان ؛ إذ أن نسبة الائتمان إما أن تحددها الدولة (فى بعض البلاد تصل النسبة إلى ٧٥ ٪ فى أحوال خاصة وتهبط إلى حوالى ٢٠ ٪ فى المتوسط فى الأحوال العادية) أو تترك للمصرف يحددها ويكون الاتحاد التجارى ضميناً له ، ولا خوف من عدم وفاء التاجر نظراً لأن السلعة المستوردة تكون دائماً سند الائتمان .

أما فيما يختص بالقروض الائتمانية لتمويل التجارة الداخلية والمحاصيل الموسمية فتلك يجب أن تتم عن طريق الجمعيات التعاونية إذا لم يكن الحصول داخلا فى نطاق الاتجار الحكومى ، وحينئذ ينتفى القرض بفائدة فى الحالتين .

خامساً : يمكن التوسع فى مؤسسة القرض الحسن الذى أنشأته الحكومة فى الماضى ، وذلك لمقابلة بعض الحاجات الاستهلاكية الطارئة على الفرد . والحقيقة أن هذه القروض الاستهلاكية لن تكون على مدى واسع ، ومع اعترافنا بأنه سيكون من العسير إلغاء القروض الربوية التى تعقد لهذا الغرض ، إلا أن مدى هذه القروض سيكون محدوداً بمقدار ما تطبقه الدولة من القوانين الإسلامية ، أو بعبارة أخرى بمقدار إسلامية الأفراد وتمسكهم بدينهم . من أجل هذا يجب أن نمهل هذا الموضوع حتى تستكمل الأفراد عناصر الحياة الإسلامية ، وحتى تقوم الدولة بواجباتها العامة قِبَل رعاياها حسبما فرضه الدين الحنيف .

٦ — خاتمة :

هذه آراء نظرية وعملية وقد طبق الكثير منها فى بعض البلاد الأوربية والإسلامية ، ولسنا نزعم بأننا قد أحطنا بالموضوع من كل نواحيه ، ولكنها آراء واتتنا ، وتجاريب مرت علينا ، وعله من المفيد أن يدرس ما تقوم به بعض الدول الإسلامية الأخرى كالباكستان وسوريا ، وما تمخضت عنه عقول مفكرى الغرب الاقتصاديين .

ويقيننا أنه إن ابتغينا وجه الله فى هذا العمل فلن يتخلى عنا ، وسيهدينا من أمرنا رشداً مرفقاً .

نريد لإيران نهضة ربانية سافرة

« طلب إلينا بعض حضرات القراء أن ننشر الرسالة التي بعث بها رئيس تحرير «المسلمون» إلى سماحة السيد آية الله الكاشاني حين زيارته لطهران في العام الماضي ، وتلبية لهذه الرغبة ننشر هذه الرسالة فيما يلي »

«التحرير»

أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين . وبعد :

فقد أسعدني الله بلقائكم ، وغمرتموني بعطفكم وفضلكم جزاكم الله كل خير ، وجمع بكم الشمل . . . وقد وجدتني — وأنا على أهبة السفر — مدفوعا إلى الكتابة لسماحتكم لأؤدي حق الله ، وأذهب مطمئن القلب .



سيدي الكريم الجليل ...

لقد خطوتم خطوة مباركة عظيمة في بعث الشعب الإيراني الكريم ، وتهيئته للذود عن حقوقه ، وكتب الله لكم في ذلك توفيقاً نحمده عليه حمداً كثيراً ، ونسأله أن يطيل في عمركم ويؤيدكم بروح منه ، وعلمت من سماحتكم أنكم متجهون إلى خطوة سياسية ثانية في سبيل اتحاد إسلامي عام ، أو إلى أوسع من ذلك كما ذكرتم : أي إلى كتلة شرقية تواجه الاستعمار قوية بوحدتها ... كل ذلك ياسيدي الجليل عظيم ، وهو عمل كبير ، وجهاد ميمون ندعو الله أن يجعل على يدكم في تحقيقه الخير الكثير ؛ وإنما الذي أستأذنكم قبل سفري في عرضه هو أن المسلمين اليوم يعانون بعداً صريحاً عن الإسلام ، الإسلام كما أراده الله في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهم على هذه الحال ينادون إلى مجد الإسلام من مكان بعيد ، ونحن نواجه ياسيدي دنيا مليئة بالشر زين للناس فيها سوء أعمالهم ، وأهال الشيطان التراب على أعينهم وقلوبهم ؛ فهاموا على وجوههم وأصبح أمرهم فرطا ، وانطلقوا مع أهوائهم الشتى كالسائمة على غير هدى « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » وأصبح نشاط البشر في القرن العشرين أعاصير تدور بالناس كحمار الرحى ، والأمر لا يختلف عن ذلك كثيراً فيما يسمونه بحركات التحرير من الاستعمار والاستغلال ؛ إذ الظالم والمظلوم في هذه الحركات بأنسان .. الظالم يعبد نفسه أو شهوته ، والمظلوم يعبد وطنه أو بطنه ؛ وكلاهما لم يعد حدود حيوانيته ، ولم يتجاوز الأرض ومتاعها ، ولم تتصل مشاعره بربه الذي سخر له الأرض والسماء « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا

وهم عن الآخرة هم غافلون » ... لا يمكن أن ينكر أحد على هذه الحركات حق العاملين لها ، ولا فضلهم فى الرخيص والغالى مما يبذلون من أجلها ، ولكن القلب المؤمن لا يجد فى ميزان الله فارقا بين كفاح هؤلاء — وإن اختلفت أساليبه وألوانه — وبين الحيوان يدفع عن نفسه الاعتداء بمخالبه وأنيابه ... كلاهما يدافع عن نفسه ، وكلاهما يدفع اعتداء وظلما ... وإنما تقوم إنسانية الإنسان بما سن الله لها ، وبسبيل آخر رسمه للناس ودعاهم إليه ، ولم يميز بينهم إلا به ، فمن استبدل به هوى أو شهوة فقد ضل « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ، أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ، أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

أولئك هم المسلمون فى بعدهم الصريح عن الإسلام ، وهذا هو أمر الناس فى الشرق والغرب ، ونحن لا نريد أن تكون نهضة المسلمين فقاعة من هذه الفقاقيع ، ولكنا نريدها مباركة ثابتة الجذور ، وربانية فيها جلال الحق وروعة أمر الله ، وسافرة تؤذن فى الناس بالأذان الذى لا ينشر السلام فى الأرض غيره ، ولا ينير أرجاءها سواه « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض » .



وطريق هذه النهضة إعداد وتربية « ولكن كونوا ربانيين » واهتمام بالأساس والجوهر قبل زينة البناء وخلابة المظهر « لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » حتى يتهيأ جيل يتمثل فيه خلق الإسلام ، ويحرس النهضة حتى تظل دائماً لله ، ويعلم الله منه صدق النية فيعهد إليه بالأمانة ويسلمه الزمام « فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا » . ولقد علمنا من السيرة النبوية الكريمة — رزقنا الله حسن فهمها والاقتداء بها — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له ليلة بدر من حجة يقرع بها باب ربه ويستنزل بها نصره إلا دعاؤه الحار « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض » .

إن النهضة على هذه الصورة قد تبدو أمراً صعباً ، ولكنها وحدها السبيل إذا كان مقصد الكفاح « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » والبناء لا يسلم إلا إذا

كان مشدوداً إلى أساس ثابت ، وموصولة لبناته لبنة لبنة ، والصعب الذى يعانيه المكافحون فى هذا الطريق هو الدليل الذى أقامه الله عليه ، وهو سنة الله فى إعداد أهل الخير للخير « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون » وواضح فى هذه الآية الكريمة أن إعلان الإيمان كان باب الفتنة ومصدر البلاء ، وأن ثبات المؤمنين فى هذه السبيل وصبرهم عليها هو البرهان الذى أراده الله للايمان ... ثم إن المسلمين — ياسيدى الجليل — بالرغم من كل ما يعانون لايزالون ينطوون على خير كثير يلمسه من يتصل بهم على اختلاف ديارهم ، ولا يزالون مستعدين لاستقبال كلمة الخير يلقيها إليهم قلب صادق وداعية مخلص ، ولاتزال أعينهم تفيض بالدمع كلما ذكرهم بالله مذكر واع ؛ بل لايزالون يسارعون إلى البذل والتضحية حين تتوفر لهم القيادة المؤمنة الحازمة التى تسبقهم إلى الفداء ، وقد رأينا الروائع من أمثلة ذلك فى التاريخ حتى فى فترات الجزر الإسلامى فى كل نواحى دار الإسلام ؛ وما عهد صلاح الدين ببعيد . وهزيمة فلسطين المرّة لم تخل من بطولات فذة شهد بها العدو قبل الصديق للحفنة من المتطوعين المؤمنين الذين كانوا يتنافسون على الموت كما كان يتنافس من ادعوا عليهم حق الزعامة والولاية على الخسيس من الشهوات ، وتاريخ أندونيسيا والباكستان وشمال إفريقيا ملىء بالمدهشات من أخبار الحركة الإسلامية التى لم تفلح مؤامرات الدنيا فى إطفاء جذوتها ، ولأمر ما جاء تركيب الآية العجيب « ولايزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا » وإنما كانت هذه الأقباس فى تاريخنا المرير نفحات متصلة لروح الإسلام الذى ظل دائما أقوى من أعدائه ، وإنما كان صرعاها وشهداؤها المؤمنين العابدين ، وهتافها فى الجبال والوديان فى الشرق والغرب « الله أكبر » .



ثم هؤلاء مسلمو إيران جمعهم عليكم وألف بين قلوبهم تحت لوائكم ثقتهم فى دينكم الذى عرفوكم به طاهراً نقياً خمسين عاماً طوالا ، وما بذلتم من تضحيات ارتبطت فى أنفسهم بمشاعر الإسلام التى جعلتهم يرمقون فيكم دائما آية الله وحسن الأسوة ، ثم جاء مشروع التأميم بعد ذلك — لا قبله — فاستفاد منه كله ، وكانت عاطفة الإسلام روح الحركة وبركتها .

فلماذا لاتنظم حملة واسعة تستخرج هذا الحب الدفين فى قلوب المسلمين ؟ وما الذى يحول بيننا وبينها والقرآن لا يزال غضاً مشرقا فى أيدينا ؟ وما الذى نصلح له إذا لم نصلح لمخاطبة هذه القلوب بالحق الذى وصلتها به يد الله ومواريث القرون ؟ .

ولا يتعارض مع ذلك — يا سيدى — أن نستعين بالدول الشرقية التى عانت الاستعمار وقاست منه حتى تتضح عندنا الغاية ، ويتوفر لنا الجهاز الذى يسدد وجهتنا إليها .

* * *

هذه — ياسيدى الوالد الجليل — خواطر تتردد فى الصدر كتبتها كما هى ، وقد أقامكم الله مقاما عزيزاً ، ومكن لكم فى القلوب ؛ وهى لعمرى أمانة غالية ثقيلة . وتوجيه منكم يمكن أن يسوق هذه الأمة إلى الخير سوقا ، فاحملوا الأمانة مؤيدين « والله معكم ولن يتركم أعمالكم » ، « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

سعيد رمضان



للعلم لا للامتحان !

« ... وحصلت على الدبلوم فى يونية سنة ١٩٢٧ . ولا أنسى الامتحان الشفهى وقد تقدمت فيه إلى اللجنة — وكانت مؤلفة من الأستاذ أبو الفتح الفقى رحمه الله ، والأستاذ نجاتى — بمجموعة عن المحفوظات بلغت ثمانية عشر ألف بيت ومثلها من المنثور ، ومنها معلقة طرفة ؛ فلم أسأل إلا فى بيت من المعلقة ، وأربعة أبيات من قصيدة شوقى فى نابليون ، ومناقشة حول عمر الخيام ، وقضى الأمر . ولم آسف على هذا المجهود ، إذ كنت أبذله من أول يوم للعلم لا للامتحان » .

حسن البنا

سبحات فكر

للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام
سفير مصر بالباكستان

عز الطاعة وذل المعصية

فى دعاء مأثور :

« اللهم إنى أعوذ بعز طاعتك من ذل معصيتك » .

حق أن الإنسان يمضى قدما أبيا عزيزا ما دام عمله مطابقا للشريعة التى اتخذتها أمته وتمسكت بها جماعته . ويسكن إلى نفسه ويستريح فى وجدانه كلما نظر فى سيرته فلم يجد فيها مخزية يطأطىء لها أو جريمة يجزى بها . ويأمن فى سره وعلانيته غير خائف أن يطلع الناس منه على ما يكرهون ، أو يفجأوه مقترفا جريرته ، مكذباً خفية ما يدعيه جهرة . فهو عزيز بعمله كريم بسيرته .



وترى الإنسان المتكبر المتجبر المختال المعتز بسلطانه ، تُسِفّ نفسه إلى المخازى فيخشى أن يطلع عليه فيهاب من يستصغره ، ويخاف من يحقره ، ويذل لخادمه ولكل إنسان يطلع منه على ما أسر من شناعة وأخفى من دناءة . وهو ، لولا إسفافة إلى المخازى ، عزيز كريم لا يهاب أحدا فى سر أو علن ، ولا يطأطىء رأسه لعظيم أو حقير .

وانظر إلى الحاكم المسلط الذى ينظر إلى الناس ازدراء ، ويأمر فيهم وينهى عتوا وعلوا . انظر إليه حين تأخذه سَورة القانون وقد ارتكب ما يؤاخذ عليه القانون . انظر إليه فى هوانه وصغاره وضراعته واستكانته ، تعلم فرق ما بين الاستقامة والاعوجاج ، والطاعة والمعصية ؛ فاحذر الذلة يا بنى وقل : اللهم إنى أعوذ بعز طاعتك من ذل معصيتك .

* * *

الكريم يستحي من نفسه

تعرض سائل لأحد الأجواد فأعطاه كثيرا . فقيل له : هذا كثير والرجل لا يعرفك . قال : ولكنى أعرف نفسى . ورحم الله شاعر الترك الحماسى نامق كمال . يقول : إن من يستحيي من الناس ولا يستحيي من نفسه يرى نفسه أخس الناس جميعاً .

إن الدرجة العليا من كرم النفس أن يتجنب المرء الدنايا ، ترفعا وتكبرا عنها وإن أمكنت وتهيأت فى مأمن من العيون ، وأن يحمل نفسه تكاليف المعالى ومشقات المروءة حبًّا لها وطموحا إليها ، بما يراها جديرة بنفسه ، ويرى نفسه أهلا لها ، لا يرجو من أحد جزاء ولا شكورا ، ولا يبغى بها رياء ولا سمعة .

فهو يستحيي من نفسه أكثر مما يستحيي من غيره ، أنفة من الصغائر ، وعشقا للعظائم . ورحم الله شاعر العرب أبا الطيب يقول :

وترى الأبوة والمروءة والفتـو ة فى كلّ مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتى لذتى فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها



الكريم لا يبالى بسلطان القانون ولا سطوة السلطان ولا حكم الجماعة لأنه فى غنى عن هؤلاء جميعا بسلطان من قلبه لا يغفل ولا يضعف ، وسطوة من وجدانه لا تلين ، ولوم من نفسه لا ينقطع ؛ كذلك نريد الناس أحرارا إلا من سلطان الوجدان ، كراما يستحيون من أنفسهم قبل أن يستحيوا من الناس .

لا ترجع الأنفس من غيها مالم يكن منها لها زاجر

***

من خماسيات الأميرى

لكل نبأ مستقر

سَأَصْبِرُ حَتَّى أَنَالَ الظَّفَرْ وَلاَ أَسْتَحِثُّ رِكَابَ الْقَدَرْ
وَكَيْفَ أُغَالِطُ نَفْسِي فَأَحْسَبُ أَنَّ سَبِيلَ الْمُنَى تُخْتَصَرْ
وَإِنِّيَ لَمَّا هَتَكْتُ حِجَابَ الزَّمَانِ وَأَدْرَكْتُ مَا قَدْ أَسَرْ
تَيَقَّنْتُ فِيمَا تَيَقَّنْتُهُ بِأَنَّ « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرْ »
تَسِيرُ الْحَيَاةُ عَلَى هَوْنِهَا تَعَجَّلَ ذُو حَاجَةٍ أَوْ صَبَرْ

عمر بهاء الدين الأميرى

باب الكتب : نقد وتعريف

* من أثر النكبة

* فقه الإسلام

١ – من أثر النكبة

للأستاذ محمد نمر الخطيب   المطبعة العمومية بدمشق سنة ١٩٥١



من آفات الشعوب النسيان ، هذه الآفة التي تكاد تكون طبعية في الإنسان ؛ فهو ينسى نعمة الله إن أصابه ضر ، فيذهب إلى اليأس والكفران ؛ وينسى الشدة بعد أن تزول ، فيستبد به الفرح والخيلاء . وقد أبان الله تعالى هذه الطبيعة إذ يقول في سورة هود عليه السلام : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور » .

وهذا كتاب أتى يذكرنا بنعمة الله علينا ، معشر العرب والمسلمين ، عندما كان أمرنا مجتمعا ، وعندما كان أهل فلسطين آمنين في وطنهم . كما أنه يدير على أعيننا « فِلْم » نكبة فلسطين باليهود وبملوك العرب وزعمائهم الذين اتخذوا الأمر هزواً ولعبا ، على حين كان الأعداء ومن كانوا وراءهم يجدون ، هل في ذلك عبرة وذكرى لقوم مؤمنين !

فهو يتحدث عن فلسطين وكيف ضاعت مدنها وقراها ، وكثير من زعماء العرب يقفون وقفة اللاهي المتفرج ! وهو يتحدث هذا الحديث المؤلم المبكي ليثير من جديد الهمة ويوقد الشعوب لغسل هذا العار باسترجاع فلسطين . وهو يوقن أن هذا الشعور إذا ضاع ، « فإن فلسطين لم تضع وحدها ، ولكن ضاعت معها البلاد العربية بأجمعها » .

والأخ صاحب الكتاب من علماء فلسطين المجاهدين ، وأقام كتابه على تقرير رسمي عن حالة اللاجئين رفعه إلى رئيس الجمهورية السورية فأحدث في الدوائر العربية

أثراً بالغاً عميقاً . هؤلاء اللاجئون « الذين كانوا بشراً وكانوا ناسا ، قبل أن تتدخل ملوك العرب وزعماؤهم فى قضيتهم .. أما الآن ،فهم فى عرف العالم اللاجئون » ! ص ١٠

فإذا تجاوز القارىء مقدمة الكتاب إلى صلبه ، أخذت الحقائق المؤلمة تتوالى أمام ناظريه عن نكبة القدس والمسجد الأقصى ، وحيفا ومصرعها وأسبابه ، ويافا واللد والرملة ، وصفد وعكاء . . . إلى آخر مانسينا من أحداث كانت حرية بان تؤرق منا العيون وتقض الجنوب ، حتى نسترجع هذه القطعة المقدسة من الوطن الأكبر ، أو نهلك دون ذلك .

وقد ختم المجاهد الكبير كتابه المؤثر الذى قصد به غرس هذه الحقيقة فى قلوبنا ، وهى ن إنقاذ فلسطين واجب على كل عربى ومسلم ، لأنها بلد كل عربى ومسلم . نقول ختم كتابه ببيان السر فى عدم نجاح الجيوش العربية السبعة (ص ٣٩٠ – ٣٩٢) ثم أتبع ذلك باقتراحات عملية هامة يجب الأخذ بها إذا أردنا حقا إرجاع فلسطين إلى مكانها من الوطن العربى الإسلامى الأكبر (ص ٣٩٦ – ٣٩٧) ؟ .



***



٢ — فقه الإسلام

للأستاذ حسن أحمد الخطيب مطبعة سيد على حافظ عام ١٩٥٢ ٤٢٥ ص ك

هذا كتاب يجىء فى أوانه ، أراد به مؤلفه الفاضل « إبراز محاسن الشريعة بجمع الهام من أصولها وقواعدها ، وذكر شىء من فروعها وأحكامها ، وبيان ما يثبت أنها صالحة للأمم فى كل عصر ، ووجوب الرجوع إليها فى تشريعنا ، وذكر شهادة أساطين العلم والقانون فى الشرق والغرب بفضلها ، عسى أن يتحقق بذلك توجيه أولى العزم إليها » . فهو كتاب ، كما نرى ، فيه من الفقه بمعناه المعروف ، ومن أصوله وفلسفته . وهو دعوة قوية لدراسته دراسة مقارنة رجاء الإفادة منه كما ينبغى فى تشريعاتنا الحديثة ولا عجب أن يكون هذا الكتاب كذلك ، ومؤلفه رجل من كبار رجال دار العلوم ، ولبعض أسلافه الكرام جولات صادقة فى هذا الميدان .

وقد بدأ الكتاب بالكلام على أصول الفقه المتفق عليها بين الجمهور : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ؛ فخص كلاًّ منها ببحث موجز مركز ، بين فيه قيمته ومنزلته

فى التشريع ، ولم ينس أن يتحدث عن الطائفة التى حاولت رفض السنة واعتبارها من أصول التشريع . وكما تكلم عن التشريعات القرآنية تفصيلا (ص ١٥ وما بعدها) ، أتى بكثير من التشريعات النبوية (ص ٩٤ — ١٤٥) . وفى الإجماع ترى الحديث يدور على إمكانه وحُجِّيته وجواز أو عدم جواز نقضه بإجماع آخر (ص١٤٧ — ١٥٢) وكذلك فى القياس يتكلم عن حجيته وما لا يجرى فيه القياس ونحو ذلك من مباحثه (ص ١٥٤ — ١٦٦).

وبعد ذلك يخلص إلى الكلام على الأصول موضع الخلاف ، وهى الاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب وشرع مَن قبلنا ومذهب الصحابى ، وقد خصص لذلك الباب الثانى (ص ١٦٩ — ١٩٧) . ثم يجعل الباب الثالث (ص ١٩٨ — ٢٢٣) للكلام على أسباب اختلافات الفقهاء فى استخلاص الأحكام من تلك الأصول كلها . ويتبع ذلك بالحديث فى إفاضة عن القواعد الفقهية الهامة ، فذكر منها ٤٨ قاعدة ، راجعاً إلى المراجع الهامة فى ذلك ؛ مثل الأشباه والنظائر لابن نُجيم والسيوطى ، والفروق للقرافى .



وهنا نجدنا نصل إلى الباب الخامس فى محاسن الشريعة ومزاياها ، ونجد نَفَس المؤلف طويلا فى بيان ما أراد ، ولا غرو فمحاسن الشريعة الإسلامية وخصائصها لايكاد يحصرها العادّ ! فتكلم عن يسرها ، وموافقتها للعقل ، وتحقيقها للمصالح العامة ، وديمقراطيتها ، وقيامها على الدين والأخلاق ، وتقبُّلها لحرية الرأى والتطور بالاجتهاد الصحيح ، وعنايتها بالمرأة ومنزلتها فى المجتمع . . . . ص ٢٦٦ — ٣٤١ . وأتبع ذلك كله بالكلام على الاجتهاد ومعناه وشروطه ، وعن التقليد وضرره ، وعما يجب علينا فى هذا العصر . . . (ص ٣٤٣ — ٣٦٣) .

وأخيراً ، تحدث عن الفقه الإسلامى والقانون الرومانى ، وعن الشريعة والقانون المقارن ، وعن واجب الأزهر والجامعة ، وختم الكتاب بشهادات قيمة للشريعة من أعلام القانون فى الشرق والغرب ، وكان هذا ختاماً طيباً لبحث قيم .

وهكذا ، نرى أى تنوع فى البحث ، واستقصاء فى بعض جوانبه ، وعناء اضطلع به المؤلف الفاضل فى غير مَنٍّ ولا استعلاء ، وكل ذلك بأسلوب قوى ممتع جذاب نتوقعه كثيراً من خريجى دار العلوم فى عهدنا المجيد :

هذا ، ومن حق الكتاب — وله وَزْن فى بابه — ألا نمر به مسرعين دون أن نوفيه بعض مايجب له من النقد ، وأى كتاب يؤلفه بشر يخلو من هنات أو مآخذ !

١ — كنا نود أن نظفر من الأستاذ المؤلف بكلمة عن النسخ فى القرآن والسنة ، وبخاصة والحديث تجدد عن ذلك فى هذه الأيام ومن جماعة لهم رأى مسموع فى العالم الإسلامى .

٢ — أتبع المؤلف كل باب بثبت بالمراجع التى اعتمد عليها ، ولكن القارىء يكاد لا يحس أثناء القراءة بالإفادة من بعضها ، كما لم يشر إلى الكثير منها حين البحث مبيناً مواضع الأخذ منها .

٣ — فى الكلام عن أقوال الجماعة التى ترى السنة أصلاً من أصول التشريع ، نرى المؤلف يعتمد على مراجع ثانوية ، وذلك نراه ظاهراً فى بحوث أخرى أيضاً(١) ، على حين أن الشافعى أول من حكى أقوال هذه الطائفة ورد عليها فى كتابه « جماع العلم » وهو كتاب معروف(٢) .



٤ — فى بيان الكتب الهامة التى عنيت بأحاديث الأحكام ، نرى الأستاذ الفاضل ينسى كتاب السنن الكبرى للبيهقى طبع الهند ، وكتاب فتح البارى لابن حجر ، مع أن صاحبى « نيل الأوطار » و « سبل السلام » قد أفادا كثيراً جداً من صاحب الفتح .

٥ — وعند الكلام عمن خالف فى القياس من الفقهاء ، كنا نرى واجباً ذكر ابن حزم وكتابيه : « الإحكام فى أصول الأحكام » و « المحلى » وكلاهما معروف ومتداول .

لا نريد أن نطيل فى ذلك ونحوه ، وحسبنا أن القارىء العربى يفيد من هذا الكتاب فائدة كبرى ، وبخاصة شباب « الإخوان المسلمون » ومن إليهم ، فى هذا الوقت الذى قوى فيه الوعى الدينى والقومى ، وأخذنا نلح فى وجوب دراسة الفقه الإسلامى دراسة مقارنة والإفادة منه ، هذه الدراسة التى تسهم فيها كلية الحقوق بجامعة القاهرة بالنصيب الأكبر ، وهذا فضل يجب أن نعترف به لها .

---

(١) بل قد يعتمد على ما لا يصح أن يكون مرجعاً فى كتاب هام مثل هذا الكتاب ، مثل الصحف اليومية والمجلات . فقد أخذ حديثاً عن الترمذى من مجلة الأزهر (انظر ص ٣١٨ — ٣١٩) فيمن ينهى عن أمر ويأتيه ، على حين أنه موجود فى سنن الترمذى ج ٤ : ١٧٢ طبعة مصطفى محمد سنة ١٩٥١ فى باب الأمر والنهى . وكذلك أخذ قولة خالد بن الوليد حين مات على فراشه (ص ٣٣٢ من الكتاب) عن مجلة الأزهر أيضا ، وكان الواجب الرجوع إلى الطبرى أو ابن الأثير أو الإصابة لابن حجر من مراجع التاريخ الأصيلة .

(٢) جاء هذا الكتاب فى ج ٧ من كتاب الأم للشافعى ص ٢٥٠ — ٢٦٧ ، ثم نشره مستقلا الأستاذ الشيخ أحمد شاكر بدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٤٠ م .

الطب عند القدماء

للأميرالاى الدكتور أحمد الناقة

(٣)

وحين امتد نور الإسلام إلى المغرب ازدهرت فى كنفه الحضارة العربية ، وأصبحت قرطبة كعبة العلوم والمعارف ، وصارت دور الكتب فيها تزخر بمئات الآلاف من الكتب . وكان للطب من تلك النهضة مكان الصدارة فقد ظهرت طائفة من نطس الأطباء استوعبت تراث الأقدمين ، ثم نقحته وأضافت إليه الكثير من فيض إصالتها وتجربتها وخبرتها .

وكان أبو القاسم أول من خصّ الجراحة بكتاب ذكر فيه فوق ٢٠٠ أداة جراحية ، وابتدع شق المسابر لاستخراج الأجسام الغريبة من البلعوم ولفحص مجرى البول ولعلاج الأذن .



وقد استحدث بعض أوضاع الولادة ، وأجاد وصف عملية الشق على حصاة المثانة فى البكر والثيب وجدد وعدل أدوات الولادة .

وكان له فى طب الأسنان باع طويل فجدد أدواته وعملياته . وكان يثبّت رأس المريض بين ركبتيه ليخلع سنه ، وسبق إلى وصف صدأ الأسنان وتثبيتها ، والأسنان الصناعية ، وجعل مكان السن المخلوع سنا من عظم الثور يمسكه إلى السن المجاور سلك من المعدن .

وهو أول من ذكر «مرض النزيف» الذى تنقله الأمهات إلى أبنائهن حيث قال : إنه وجد فى إحدى القرى قوما يموتون من كثرة ما تنزف جراحهم وإذا حك الطفل منهم لثته نزفت حتى الممات وإنه لم ير هذا المرض فى غير تلك القرية ولم يعثر عليه فى كتب الأولين وأنه لايعرف له سبباً ولاطبا . وكذلك نحن اليوم .

وكان يؤثر الكى على المشرط ، وقد عالج به مايزيد على خمسين مرضا .

وفى أشبيلية ظهر ابن زهر الذى مارس الجراحة ومهر فى العلاج عن أبيه وجده . عالج الأمراض والسموم بأدوية وردت فى دستور أدوية لندن حتى منتصف القرن الثامن عشر .

وبقى الناس يحكون جلدهم من الجرب وهم لايهتدون إلى أصله حتى اكتشف ابن زهر حشرته التى لاتكاد ترى من فرط الصغر .

وقد عرف أطباء العرب السرطان وعرفوا أن الجراحة فيه لاتجدى إلا أول المرض . وقد عرف ابن زهر سرطان المعدة والبلعوم وأدخل فيها أنبوبة من الفضة حين تعذر البلع ، وصب فيها السوائل المغذية ولم يزد الطب الحديث شيئاً فوق ذلك .

وهو أول من قال بإمكان « التغذية الشرجية » السائلة كاللبن والبيض والحساء ونحوه . وقد استعمل لذلك أنبوبة مثبتة على مثانة الضأن . وقد سخر منه معاصروه ومن تبعهم ولم يقروه على التغذية الشرجية حتى أيدها العلم الحديث ومارسها أطباء اليوم .

وفى كتابه « التيسير » عارض كثيراً من آراء ابن سينا وجالن وجعل العبرة بالخبرة العملية والتجربة المادية .



ثم ظهر بعده صديقه وتلميذه ابن رشد الذى نشأ فى قرطبة من أسرة تولت القضاء وقد كان هو قاضيا ثم نزعت نفسه إلى الطب والفلسفة فلم يصرفه القضاء والمناصب عن طلب العلم . كتب كثيراً فى فن العلاج وقرر أصلا من أصول الطب حين أشار إلى « المناعة » التى تحمى الإنسان أن يصاب بالجدرى غير مرة .

وقد عرف الغرب قدر فلسفته فعكف على دراستها ؛ فكانت من أقوى العوامل فى يقظته ونهضته فى القرن الرابع عشر .

وخلفه تلميذه « أبو عمران موسى بن ميمون » طبيب صلاح الدين فى القرن الثانى عشر . وقد ضمت حاشية صلاح الدين أطباء من المسلمين واليهود والنصارى فكان ذلك دليلا على سماحة الإسلام وحجة على أعدائه الذين يصفونه عن جهالة بالتعصب البغيض ومايصفون إلا أنفسهم وهم لايشعرون .

وقد بلغت هذه السماحة أوجها حين اشتد المرض على عدوه ملك الإنجليز « ريتشارد قلب الأسد » وهو على رأس الجيوش الصليبية فأوفد صلاح الدين إليه طبيبه الخاص ، وحين برحت به الحمى أرسل إليه كذلك قافلة محملة بالثلج .

وقبل ألف عام بلغ الخليفة المقتدر أن بعض المرضى يموتون من جهل الأطباء فدعا جماعة من كبار الأطباء وجعل عليهم رئيساً : سنان بن ثابت ، فتألفت بذلك أول لجنة لامتحان الأطباء تقدم لها نحو ٨٦٠ طبيبا فأجازت منهم من أثبت علما وتجربة . وكانت له عناية بمرضى السجون ، ودراية تامة بإدارة المستشفيات فى بغداد .

ومنذ ذوى مستشفى جنديشابور قامت المستشفيات وانتثرت فى حواضر الإسلام :

دمشق ، القاهرة ، قرطبة ، أنطاكية ، بيت المقدس ، مكة ، المدينة ، الموصل ، حلب ، حماة ، أصفهان ، شيراز ، الجزائر ، الإسكندرية .

وكان للرازى طريقة عجيبة يكشف بها أنقى المواقع هواء وأصحها مناخا لإقامة المستشفيات وذلك بتعريض قطع اللحم الطرى فى مواقع شتى ؛ فأيها أسرع إليه العطب تحاشاه وأيها أبطأ به العطب زكاه .

وقد أمر الرشيد أن يلحق بكل مسجد مستشفى ومدرسة ، وبنى مأوى للمجانين . وفى القرن الثانى عشر كان فى بغداد نحو ٦٠ مستشفى تستمد حاجاتها من بيت المال ، ويمنح ناقهوها أرزاقهم حتى يتم لهم الشفاء .

وفى دمشق بنى نور الدين من ماله الخاص مستشفى كبيرا يعنى بكل من جاءه من المرضى ، ويسكت حتى على أدعياء المرض يستضيفهم ثلاثة أيام ويطعمهم الدجاج والفطير والفاكهة والشراب .



وحدث أن عولج المنصور بهذا المستشفى من مغص أصابه فأعجب به إعجابا شديداً ونذر إذا صارت إليه السلطنة أن يبنى مستشفى يضارعه . ولما تحقق له ما أراد بعد سبع سنين أوفى بما عاهد الله عليه ، وصار يركب كل يوم يشرف على البناء ويعمل فيه بيديه فاستثار بذلك حماسة الأهلين فأقبلوا على معونته حتى تم البناء فى سنة واحدة ، وأنشأ إلى جواره مكتبة ومدرسة ومسجداً رتب له خمسين مقرئا يتلون كتاب الله بالليل والنهار ، وثلاثة يقرأون حديث الرسول للتلاميذ .

وأقبل المرضى من كل فج إلى المستشفى حين علموا حسن الاستقبال وجودة العلاج وعناية الممرضين من الرجال والنساء ومهارة الأطباء ووفرة الدواء لكل داء . وكان لكل مرض غرفه الخاصة : كالحمى ، والرمد ، والجراحة ، والأمراض الباطنية ، وكان للناقهين جناح خاص بالرجال وآخر خاص بالنساء مغطى بمظلة تقيهم حر الشمس حين يمشون وحين يستريحون . وتفجرت نافورات المياه فى قاعاته الكبرى تلطيفاً للهواء

وكان به عيادة خارجية لفحص وعلاج المرضى القادرين على المجىء إلى المستشفى ، أما الذين لا يستطيعون الحركة فقد كان الأطباء يعودونهم فى منازلهم ثم يرسلون إليهم حاجتهم من الدواء والغذاء . وكان المريض الفقير إذا خرج من المستشفى أعطى من المال ما يسد عوزه حتى يقوى على العمل .

ونضج طب العرب حتى فرقوا بين أمراض البدن وأمراض النفس ، فطبوا للأولى

بالدواء وللثانية بالعلاج والإيحاء . ومن الأمثلة على ذلك ما روى عن امرأة شل ذراعاها فعرف الطبيب أنه ناشىء من علة نفسية ، ولما جاءت للعلاج كان الطبيب فى جمع من الناس وعلى حين غفلة رفع النقاب عن وجهها فاحمر خجلا ، ثم رفع ثوبها فوق رأسها فانكشف سترها وبحركة لا إرادية رفعت ذراعيها وأنزلت ثوبها فشفيت .

وعالج الرازى أميراً أقعده « الروماتزم » فلم يفلح ، فصحبه إلى حمام خارج المدينة وعالجه بالماء الساخن والبخار ، ثم استأذنه وغاب عنه قليلا ثم عاد إليه وبيده خنجر ، وصار يهدده بالقتل ويسبه ويلعنه جزاء ما استعلى عليه وأساء إليه ، فثار الأمير ثورة شديدة نسى لها مرضه وقام إلى الطبيب يريد به شراً فبرىء وكان لا يستطيع قبل ذلك حراكا . وكان الرازى قد فر على ظهر جواده . وبعد أسبوع أرسل خادمه إلى الأمير يحمل خطابا يعتذر فيه عما بدر منه بأنه إنما أراد أن يستثير غضبه فيحرك فيه الأخلاط الحارة الكامنة لتغلب ما بقى من العلة فيكون الشفاء ، فعفا الأمير عنه وطلب عودته ليجزيه خير الجزاء ولكن الطبيب آثر ألا يعود تفاديا للحرج فأرسل إليه الأمير خلعة سنية : جبة وعمامة وسلاحا وغلاما وجارية وجواداً مطهماً ، وأجرى عليه كل عام ٢٠٠٠ دينار و ١٠٠ حمل بعير من الحنطة .



وطب ابن سينا لعلل النفس بالإغراء والإيحاء ونحوها من العلاج النفسى فسبق علماء اليوم بألف سنة أو تزيد .

وفى أواخر القرن الثالث عشر كان ابن النفيس على رأس أطباء القاهرة لخص قانون ابن سينا وعلق عليه وعارض فيه جالن وابن سينا بقوله : إن فاصل بُطَين القلب مقفل واكتشف دورة الدم الصغرى قبل أن يهتدى إليها الإفرنج بثلاثة قرون وقد كانوا يدعون لأنفسهم فضل السبق إلى هذا الكشف العظيم إلى وقت قريب .

وكان ابن البيطار طبيب أمراء مصر عالما بالنباتات وخواصها ، طوف فى الآفاق بحثاً عن العقاقير ووصف فى كتابه نحو ١٤٠٠ عقار كان له فضل السبق إلى وصف ٣٠٠ عقار منها جاء ذكرها لأول مرة فى تاريخ الطب ، ويعد كتابه مرجعا للعلماء حتى اليوم .

أما الصيدلة فقد كان لها عند العرب شأن كبير لأنهم يميلون لمباحث الكيمياء وتزخر بلادهم بشتى العقاقير . ولأهل فارس بصر بالعطور ومواد التلوين . وعلى يد العرب عرفت الدنيا أول الصيدليات على النحو الذى نراه اليوم .

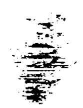
ومنذ القرن الحادى عشر راجت تجارة العقاقير الشرقية فى بلاد الغرب .

وجاء فى « تاريخ الأطباء » لابن أُصيبعة ذكر نحو ٤٠٠ من أطباء المسلمين ساهموا فى تدعيم الطب العربى وتخليد ذكره .

وفى القرن الرابع عشر قال ابن الخطيب حكيم غرناطة بالعدوى ولزوم عزل مرضى الطاعون رغم القَـدَرية التى كانت سائدة حينذاك .

وكان فى القاهرة فى القرن السادس عشر طبيب يدعى « داود الأنطاكى » كتب « تذكرة داود » وصف فيها كثيراً من الأدوية التى لا تزال مرجع العامة فى التداوى حتى اليوم .

وكان فى بغداد إدارة خاصة تشرف على المهن وآدابها . ومنها مهنة الطب : تطهرها من أدعياء الطب والجراحة والصيدلة ، ثم أخذت بذلك حواضر الإسلام .



وقد قال المنصفون من مؤرخى الغرب إنه لو لا حضارة الإسلام لزال فى ظلمات القرون الوسطى كل أثر لتراث العلوم والمعارف ؛ فقد صان العرب هذا التراث وزادوه ، وكانوا هم الذين علموا الغرب فأيقظوه من سباته ووضعوا أس نهضته .

وإذن فلا عار على المسلمين ـ وقد دار الزمن دورته ـ أن يعودوا فيقتضوا بعض الدين الذى لهم فى أعناق الغرب ، ويستردوا شيئاً من فضل آبائهم عليه ، ثم يستأنفوا بعد ذلك جهادهم فى سبيل الله ، مهتدين بنور العلم ، مزودين بقوة الإيمان عاملين لخير المسلمين والناس أجمعين « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

كلمة الله أجمع

قدم هارون الرشيد الرقة فانجفل الناس خلف عبد الله ابن المبارك فقالت أم ولد لهارون كانت مشرفة على ذلك : من هذا ؟ فقالوا لها : عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله ابن المبارك ، فقالت : هذا والله المُلك لا ملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان !

من أغاني المتاب :

صـــلاة ...

« شوق إلى الله . . . »

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

يا مُجيبَ الدعَواتِ جئتُ أُزجي صلَواتي
ضارعاً تخشَعُ عِيدانى . . وتجثو نغماتى
وتناديكَ صباباتى بكلٍّ اللهَجاتِ . .
إنْ تلفَّتُّ ، فمنكَ النورُ يطوِى لفتاتى
أوْ تهامستُ أُحِسُّ النورَ يغزُو همَساتى
وإذا أدْعو . . أرى الأنوارَ تُرْدِى كلماتى
وإذا أصْمُتُ ، يدعُو كلُّ شيء فى حياتى . .
نشوةُ الإيمان بحرٌ زاخرٌ بالرحَماتِ
وجِنانٌ فى فضاء النَّفْسِ خُضْرُ العَذَباتِ
تصدحُ الأحلامُ فيها كطيورٍ ناغماتِ
ويَفيضُ الطُّهرُ منها كعُيونٍ جارياتِ
وتَهُبُّ الرُّوحُ منها كلَّ أطيابِ الحياةِ . .

* * *

ذلكَ الضَّاربُ فى ليلٍ ضَريرِ الظُّلُماتِ
مزَّقَ الشوْقُ حنـاياهُ لِطَيْفِ المَغفِراتِ
غنَّتِ الحُبَّ لَياليهِ وجُنَّتْ بالغَداةِ

وتلاشتْ في صَداها كهزيج السَّاقياتِ ..
ظامئ للنُّور مَلْهوفُ الحشَا والنَّظَراتِ
أرأيتَ الطيرَ في عَوْدَتِها للرَّبَواتِ !
أرأيتَ الرِّيحَ في هَبَّتِها بالخَلَواتِ !
أرأيتَ الحُلْمَ في صَحْوَةِ جَفْنٍ من سُباتِ !
هكذا ينفُضُه الوَجْدُ لرُؤْيا عرَفاتِ ..
والِهاً يشتاقُ في واديهِ بعضَ الخطُواتِ !
يتمنَّى لو تكونُ الرُّوحُ ذَرَّ الحصَياتِ
وتكونُ النفسُ هَمْساً حائماً بالشُّرُفاتِ ..
أيُّها البيتُ .. سلاماً ملُوِيَّ النَّفحاتِ
تُرْبُكَ الميمونُ قُدْسٌ شاهِقُ الحُرُماتِ
كلُّ مَنْ مَرَّ عليهِ مَرَّ مسحُور السِّماتِ
هُرِعَ الناسُ إلى بابِكَ من كلِّ الجهاتِ
طرَحُوا الدُّنيا وخفُّوا بقلُوبٍ نادماتِ
حُسَّرًا يمشُونَ لله بأيدٍ ضارعاتِ
وصُدورٍ حانياتٍ من عذاب المَعْصياتِ
وقلوبٍ جأرَتْ أسرارُها بالتَّلْبياتِ
وجُفُونٍ من ضياء الله دارت مُسْبَلاتِ
ونفوسٍ قانِتاتٍ تائباتٍ عابِداتِ
ذائباتٍ في رحيق النورِ نشْوَى فانياتِ
عاشقاتٍ منبَعَ الطُّهرِ منارَ الكائناتِ



سـيِّدَ الدُّنيا ، شـفيعَ الحقِّ ، سرَّ الرحماتِ
ربِّ باركنا بِهِ . . آصالَنـا غُـدُواتِ
وابعثِ الشرقَ بنُورٍ منـه يَغزُو الظُّلماتِ
ويُعيدُ الميِّتَ الهامدَ حيًّا لِلحَيـاةِ . .
بَعـد ماشابتْ به الأغـلالُ فى أَسْرِ الطُّغاةِ ،
قَيِّضَ اللهُ له ناراً على كفِّ العُتاةِ
شبَّها الأحرارُ فى وجـــه القيُود الغاشماتِ
فتلاشت فى لظاها بين طبـاقِ الرفاتِ . .



فى جو «إقبال» شاعر الإسلام

للقاضى محمد محمود الزبيرى

شاعر اليمن

أفهذا الإنسان سلطان هذا الـكون أم خلت منه شيئاً فريًّا ؟!
سوف أزجى إليك أحدوثة الأعمى الذى لم يعد يرى اليوم شيًّا
لم يجـد نفسه ولم يبصر الدنيا ولم يعرف الإله العَلِيَّا
أفهذا الذى صنعت بكفيك وأبدعت منـه خلقاً سويًّا

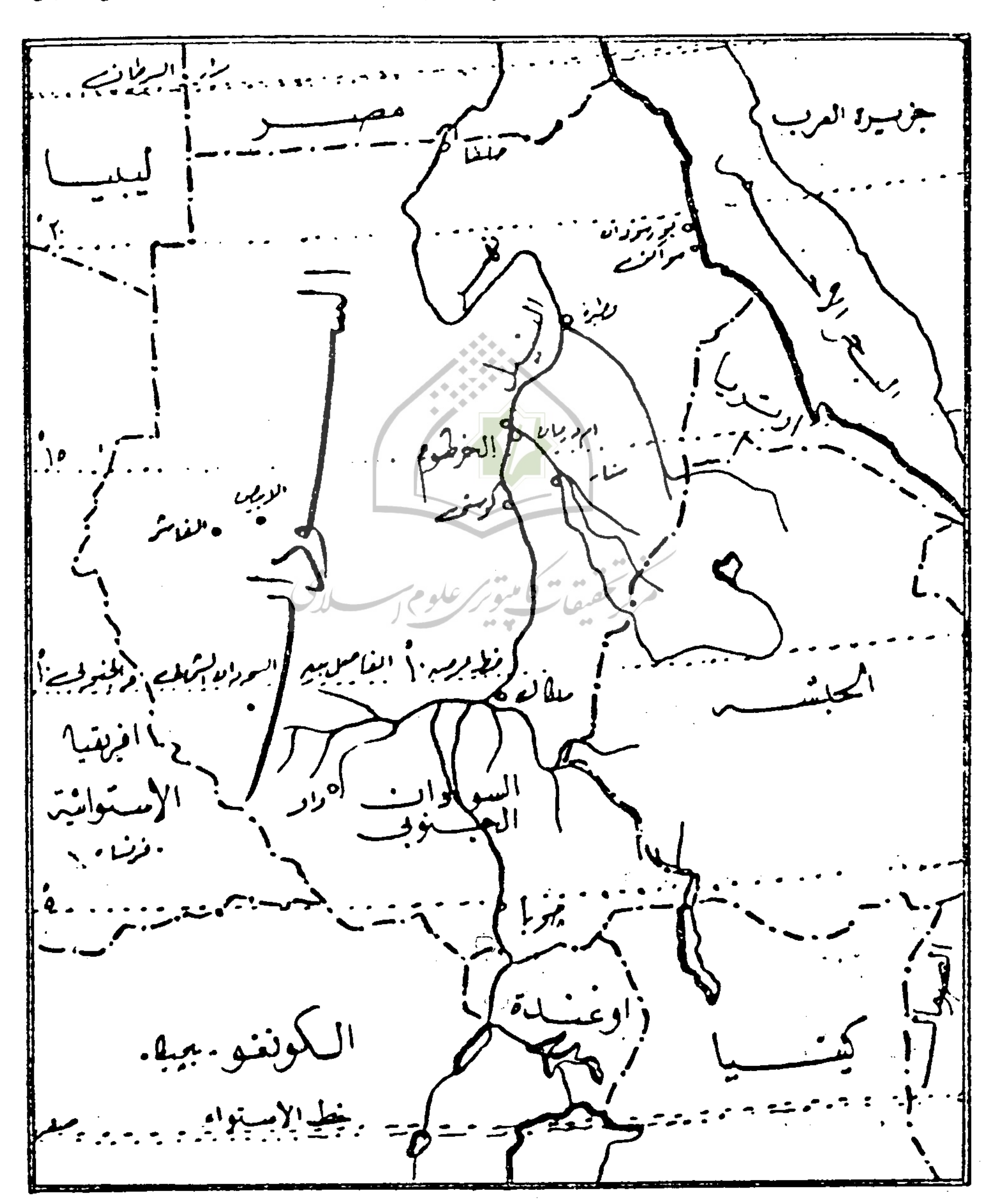
* * *

يا أسير الحضارة العصريَّهْ استمع لحظـــة لقولة حقٍّ
إنَّ فقدَ اليقين فى الحريَّهْ هو شرٌّ من كل قيدٍ ورقٍّ

السودان المسلم

للأستاذ محمد الخير عبد القادر

بيئة مدارية لافحة وعقيدة إسلامية سمحة ودم عربي أصيل ، تلك هي العوامل الكبرى التي شكلت تاريخ السودان الحديث ورسمت خصائص المجتمع السوداني وحددت اتجاهاته . فالسودان — من الوجهة الجغرافية — هو الامتداد الطبيعي لوادي النيل الشمالي الذي يمثل الإقليم المداري بخصائصه المناخية ومظاهره التضاريسية . والشعب السوداني(١) — في مجمله — هو سليل الأمة



العربية المجيدة التي اصطفاها الله لتحمل أمانة السماء إلى الأرض وتبشر بدين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فتربي مجتمعاً وتؤسس دولة وتنشئ حضارة . وشاءت إرادة الله أن يكون لوادي

(١) نحن هنا نتحدث عن السودان الشمالي الذي يمتد من خط العرض العاشر شمالا ويبلغ تعداد سكانه نحو ٦ ملايين نسمة .

النيل الجنوبي نصيب موفور من هذا التراث الإسلامي الخالد فنشطت الهجرة العربية الى جنوب الوادي عن طريق النيل في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وتبلورت الهجرة في مملكة الفونج العربية المسلمة التي أطاحت بمملكتين مسيحيتين كانتا تحتلان الصدارة في تاريخ السودان منذ القرن السادس الميلادي وهما مملكة « المقرة » التي كانت تشغل ما يعرف اليوم بالمديرية الشمالية ومملكة « علوه » التي تحتل مكانها الآن مديرية الخرطوم .

والى ذلك العهد الباكر يرجع تاريخ الطرق الصوفية ونشأتها في السودان . والطرق الصوفية تحتل مكانا مرموقا في تاريخ السودان لأنها تعتبر من أقوى العوامل التي تتحكم في توجيه المجتمع السوداني لما كان يتمتع به مشايخ هذه الطرق من ثقة ومحبة وتقدير ، فتعلقت بهم قلوب الجماهير ودان لهم ملوك الفونج بالتوجيه والإرشاد في المسائل الروحية والسياسية على السواء . فقبيل تأسيس مملكة الفونج أخذ المشايخ والعلماء يتوافدون الى السودان من بلاد الحجاز عن طريق البحر الأحمر كما أخذ السودانيون يزحون الى الحجاز طلباً للعلم في مكة والمدينة . ومن جراء هذا الاختلاط اتخذت الطرق الصوفية سبيلها الى السودان فأسست المعاهد الدينية لنشر الثقافة الإسلامية في أوساط الوثنية المظلمة . ولكن الموجة الأولى من الطرق الصوفية التي تسربت الى السودان — ومنها الشاذلية والقادرية — لم تترك أثراً قويا بالقياس الى الموجات التي تلتها في مطلع القرن التاسع عشر . ففي بداية هذا القرن أخذت الحياة تدب في كيان العالم الإسلامي كرد فعل لحركة التوسع الاستعماري الأوربي . ومن مظاهر هذه اليقظة الإسلامية قيام الحركة الوهابية في الحجاز واتساع نفوذها وحملتها على البدع التي ألصقت بالإسلام في ظل الطرق الصوفية . وليس دخول الطريقة العثمانية السودان الا نتيجة من نتائج الصراع بين الحركة الوهابية والطرق الصوفية في الحجاز . ولكن أقوى الطرق أثراً في السودان هي الطريقة الميرغنية والطريقة الإدريسية اللتان تعزوان أصلا الى السيد أحمد بن إدريس الفاسي الذي عاش في الحجاز في النصف الأول من القرن التاسع عشر والذي كان يعتقد أن في عنقه أمانة هي تجديد دعوة الإسلام وتوحيد صفوف المسلمين الذين مزقتهم الخلافات المذهبية والفرقة الطائفية . ومن الطريف أن نذكر أن هذه البواعث هي نفس البواعث التي دفعت السيد محمد أحمد المهدي للقيام بحركته المعروفة ، وأن أهداف السيد أحمد بن إدريس هي نفس الأهداف التي توخاها السيد المهدي وثار من أجلها .



ومن أشهر حواريي السيد أحمد بن إدريس السيد محمد عثمان الميرغني الذي يرجع إليه الفضل في نشر الطريقة الميرغنية — نسبة إليه — في معظم أنحاء السودان الشرقي والشمالي وخاصة في مديرية كسلا ومديرية الخرطوم والمديرية الشمالية وبعض المناطق في مديرية كردفان . وما زالت هذه المناطق والمديريات تمثل أقوى مناطق النفوذ للطريقة الميرغنية تحت رعاية السيد علي الميرغني حفيد السيد محمد عثمان تلميذ السيد أحمد بن إدريس .

وإذا كانت الطريقة الميرغنية أو « الختمية » قد استأثرت بالنفوذ الأكبر في السودان الشرقي والشمالي فإن السودان الأوسط والغربي ظل بمعزل عن تأثير الطرق الصوفية فمهدت هذه العزلة لقبول الفكرة المهدية السنية وذيوعها . ويكفي دلالة على ذلك أن السابقين من الأنصار الذين آمنوا بدعوة المهدي وحملوا عبء الجهاد معه كانوا من أهل الجزيرة وكردفان ودارفور وعلى رأسهم خليفة المهدي عبد الله التعايشي . وتمثل هذه المناطق اليوم موئل نفوذ المهديين أنصار السيد عبد الرحمن المهدي بن السيد المهدي صاحب الثورة المشهورة . ولكن نترك خطورة الدور الذي تلعبه هذه

الطوائف الدينية من « مراغنة »(١) و « أنصار » (٢) يكفى أن نعلم أن الأحزاب السودانية : الانفصالية منها والاتحادية لا تستطيع أن تبرم أمراً ذا بال ما لم يكن لها سند من هذه الطائفة أو تلك .

نشأت الطوائف الصوفية اذن فى ظل مملكة الفونج العربية المسلمة التى يمكن أن يعتبر قيامها اعلانا رسمياً للدين الإسلامى وغلبة العنصر العربى — بلغته وخصائصه — فى السودان . وإذا كانت مملكة الفونج قد فقدت سيطرتها السياسية على البلاد بعد حكم دام أكثر من ثلاثة قرون فإن العقيدة الإسلامية واللغة العربية والشمائل العربية ظلت راسخة فى الشعب السودانى إلى اليوم . وقد أعقب انهيار مملكة الفونج فترة من الفوضى والاضطراب مهدت لقيام الحكم المصرى بالسودان الذى امتد من مطلع القرن التاسع عشر حتى اندلعت نار الثورة المهدية فى سنة ١٨٨١ فالتهمت ما تبقى من مفاسد ذلك الحكم فى سنواته الأخيرة لتقيم على أنقاضه دولة الإسلام المسترشدة بالكتاب والسنة . وتساقطت مدن السودان تباعا فى أيدى الثوار حتى توجت الانتصارات الحربية للثورة بسقوط الخرطوم ومقتل غردون وإخضاع السودان بأسره لحكم « المهدية » الذى دام ستة عشر عاما وانتهى بالفتح الإنجليزى المصرى وتوقيع معاهدة سنة ١٨٩٩ التى خضع السودان بمقتضاها للحكم الثنائى — اسما — الإنجليزى ، فعلا ذلك الحكم الذى ما زال السودان يئن تحت وطأته حتى هذه الساعة .

وربما يذهب بعض الباحثين فى تفسير الثورة المهدية التى انتزعت السودان انتزاعا من السيادة الخديوية إلى أن الثورة كانت هدما لوحدة وادى النيل السياسية التى دأب الخديوى إسماعيل — بصفة خاصة — على استكمالها وتدعيمها منذ ولى الحكم باستصدار الفرمانات تلو الفرمانات من الباب العالى . وقد يكون صحيحاً أن الثورة المهدية فصمت وحدة الوادى كما كان يفهمها حكام مصر فى ذلك الوقت ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فى منطق الثورة لأن الحركة المهدية لم تكن — فى نظر المهدى وخلفائه — سوى نواة لثورة إسلامية عالمية تعود بالدين إلى بساطته ووضوحه وتطبق الإسلام تطبيقا عملياً فى شئون الحياة المختلفة وتصرف المسلمين عن الجدل العقيم فى فروع العقيدة وجزئياتها إلى أصول الإسلام وكلياته وتجمع شمل البلاد المتفرقة تحت راية الإسلام . ذلك أن الحركة المهدية لم تكن مجرد انقلاب عسكرى وإنما كانت امتداداً طبيعيا للثورة الإسلامية الأولى التى حمل لواءها محمد صلوات الله وسلامه عليه فبنى مجتمعا وأسس دولة على نمط لم تعهده البشرية من قبل ولا من بعد . ولكن الثورة المهدية لم يقدر لها أن تبلغ غايتها لأسباب لا يتسع هذا المقال للخوض فيها .

لقد بنى المهدى دعوته على دعامتين أساسيتين أولاها أن الإسلام دين الفطرة الإنسانية تتلقاه النفس البشرية دون عناء أو مشقة (٣) وتستجيب له بفطرتها ؛ فهو ليس وقفا على طبقة المتصوفين والعلماء دون غيرهم وإنما هو دين الناس جميعاً ، ويقترن بهذه الدعامة أن اتجاه المسلمين إلى الخوض فى الموضوعات الخلافية وجزئيات العقيدة طمس فى نفوسهم حقيقة الإسلام البسيطة السهلة وباعد بينهم وبين الكتاب والسنة وهما المصدران اللذان لا يضل عنهما إلا هالك . والدعامة الثانية التى قامت عليها دعوة المهدى هى أن الدين ليس نظريات تحفظ وإنما هو منهاج يطبق(٤) فلا بد من

(١) المراغنة هم أنصار السيد الميرغنى وأتباعه .
(٢) « الأنصار » هم أتباع السيد عبد الرحمن المهدى .
(٣) دكتور شبيكة : السودان فى قرن : ص ٢٣٥ — ٢٣٦
(٤) نفس المصدر : ص ٢٣٦ — ٢٣٧

الائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه . ويقترن بهذه الدعامة أيضا أن الدين منهاج شامل لا يقبل التجزئة فهو ينظم شئون الحياة جميعاً من أحوال شخصية ونظم إدارية وتنفيذية وقضائية وغيرها . ونورد على سبيل المثال بعض أقوال المهدى وخليفته عبد الله للتدليل على حقيقة دعوته وأهداف ثورته . فقد جاء عن المهدى أنه قال(١) : « طريقتنا لا إله إلا الله محمد رسول الله ومذهبنا الكتاب والسنة ؛ ما جاء من عند الله على رؤوسنا وما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم على رقابنا وما جاء من الصحابة إن شئنا عملنا به وإن لم نشأ تركناه » وجاء فى الإنذار الذى وجهه خليفته المهدى عبد الله التعايشى إلى توفيق خديوى مصر « واعلم أن مادعوتك إليه هو الدين الحق القويم والمنهاج الواضح المستقيم فلا تعرض عنه إلى نزعات الباطل ؛ فإن الحق جدير بالاتباع والباطل حرى بالتلاشى والضياع (٢) » .

لم تكن الثورة المهدية إذن حركة عسكرية ولا انقلابا محلياً ، وإنما كانت تجديداً لدعوة الإسلام ومحاولة لتطبيق الإسلام تطبيقاً عملياً تستقيم به شئون الحياة الدنيوية والأخروية ، ويتضح من الانذارات التى وجهها خليفة المهدى إلى خديوى مصر وإلى السلطان العثمانى والملكة فكتوريا أن الحركة المهدية كانت تهدف إلى تحقيق وحدة وادى النيل على أساس العقيدة الإسلامية ، وتعتبر هذه الوحدة خطوة تمهيدية نحو الوحدة الإسلامية العالمية . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الشعب السودانى — على اختلاف طوائفه الدينية — مازال ينظر إلى وحدة وادى النيل من هذه الزاوية وهذا مايفسر لنا امتعاض الغالبية العظمى من أهل السودان حينما كانوا يسمعون ساسة مصر فى العهد البائد يتحدثون عن وحدة الوادى تحت التاج المصرى فلا تقابل أحاديثهم فى السودان إلا بسخرية مريرة تنم عن إدراك السودانيين العميق لحقيقة ما كان يعنيه أولئك الساسة من حديثهم عن الوحدة . وإن أسوأ دعاية روج لها ساسة مصر ضد وحدة الوادى هى تلك الحياة المترفة العابثة التى انغمسوا فيها وذلك الفساد المزرى الذى استشرى فى كافة مرافق الحياة المصرية تحت رعاية الساسة وبفضل تشجيعهم . ومما هو جدير بالذكر أن داعية من كبار الدعاة الإسلاميين زار السودان وتحدث إلى من كانوا يسمون فى ذلك الوقت بالانفصاليين والاتحاديين وأبان للفريقين فى قوة وصراحة الأسس التى وضعها الإسلام لتقوم عليها وحدة الأمم والشعوب ، وأبان كيف ينبغى أن تقوم الوحدة بين جنوب الوادى وشماله على أساس العقيدة المشتركة قبل أن تقوم على أساس المنافع المتبادلة وأن الوحدة بين شطرى الوادى ليست غاية فى ذاتها وإنما هى وسيلة لتحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة وخطوة ممهدة لها .

ويبدو أن الحقيقة التى انطوى عليها هذا التفسير لوحدة الوادى كانت أقوى من أن يثبت أمامها ذلك الحاجز الوهمى الذى يقسم الشعب السودانى المسلم إلى انفصاليين أو اتحاديين ؛ وإذا بالاتحادى والانفصالى — بعد سماع هذا الحديث — يصبحان من أكثر الناس حماسا وتأييداً لوحدة الوادى مادامت قائمة على أساس إسلامى واضح . ولعل فى هذه القصة درساً نافعا لساسة الشعوب الإسلامية وقادتها من الذين مازالت نفوسهم تهفو إلى وحدة مصطنعة بين الشعوب الإسلامية قوامها المصالح المشتركة(٣) .

(للبحث بقية)

(١) نفس المصدر : ص ٢٣٨

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٠

(٣) الأستاذ محمد الخير عبد القادر كاتب هذا البحث من أبناء السودان

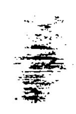
« التحرير »

في أفق العالم الإسلامي

السودان

من النعم التي يسديها الله عز وجل للمسلمين بين الحين والحين ما يكون جزاء منه لهم على طاعة تقدمت منهم فاستحقوا عليها تلك النعمة . أو تكون امتحانا لهم حتى إذا أحسنوا الشكر عليها بحسن استعمالها أدام الله بركتها عليهم ، أما إذا كفروا نعمة الله باستعمالها في غير مرضاته فقد مضت سنته بأن يسلبها منهم ويحرمهم ثمراتها وبركاتها .

وقد أتم الله على وادي النيل وأهله في أواخر هذا الشهر (٢٧ جمادى الأولى ١٣٧٢ — ١٢ فبراير ١٩٥٣) نعمة من نعمه الكثيرة المتواصلة ، فاتفقت الحكومتان المصرية والبريطانية على تصفية الإدارة الحاضرة في السودان وإنهائها إنهاء فعلياً في خلال ثلاث سنين تسمى (فترة الانتقال) وفي نهايتها يصدر البرلمان السوداني قراراً يعرب فيه عن رغبته في اتخاذ التدابير للشروع في تقرير مصيره ، وحينئذ تأخذ القوات المصرية والبريطانية في الانسحاب من جميع السودان فور صدور ذلك القرار ، في مدة لا تتعدى ثلاثة أشهر ، ثم تقوم الجمعية التأسيسية بتقرير مصير السودان بوصفه وحدة لا تتجزأ ، كما تقوم بإعداد دستور جديد للسودان يتواءم مع القرار الذي يتخذ في هذا الصدد ، وتسن معه قانوناً لانتخاب برلمان سوداني دائم .



وسيتقرر مصير السودان إما بأن تختار الجمعية التأسيسية ارتباط السودان بمصر على أية صورة ، أو باختيار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام . وقد تعهدت الحكومتان المصرية والبريطانية من الآن باحترام قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بمستقبل السودان ، وستقوم كل منهما باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار .

أما فترة الانتقال التي قدرت بثلاث سنوات والتي يمهد فيها لتصفية الإدارة الحاضرة ، فسيحتفظ فيها بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم لهم تقرير مصيرهم بإرادتهم واختيارهم . وقد نصت الاتفاقية على تفاصيل ذلك وعينت لتنفيذه لجاناً مختلفة من السودانيين والمصريين والبريطانيين وفي إحدى هذه اللجان عضو باكستاني ، وفي لجنة أخرى عضو هندي ، وفي لجنة ثالثة عضو أمريكي . واتفقت الحكومتان على أن لا يمارس الحاكم العام سلطاته في السنوات الثلاث على أية صورة تتعارض مع المبدأ الأساسي للسياسة المشتركة للحكومتين في الاحتفاظ بوحدة السودان بوصفه إقليما واحدا .

إن هذا الحادث التاريخي من أعظم ما وفق الله له هذا العهد الجديد في مصر ، وهو بلا ريب انتصار للأخلاق ، ثم هو مكافأة من الله للسودانيين على اتحاد كلمتهم بعد اختلافها ، واجتماع أحزابهم بعد افتراقها ، واستجابة السودان كله — شماله وجنوبه — لنداء الأخلاق الذي هتف بهم من مصر بأن هلموا نعمل للمصلحة العامة وحدها لا يفرقنا في سبيلها غرض ، ولا شهوة ، ولا مأرب .

وهذا الحادث التاريخي لا يقل أهمية في تاريخ الإسلام الحديث عن ولادة الدولتين الإسلاميتين العظيمتين باكستان وأندونيسيا ، ولا عن جلاء القوات الفرنسية عن الجمهوريتين الشقيقتين سوريا

ولبنان . وإذا عرف سكان وادى النيل بعد تمام هذه النعمة عليهم كيف يشكرون الله عليها بالمحافظة على اتحادهم فى كل ما يرضى الله ، وعلى إيثار المصلحة العامة فى كل شىء فلايشوبونها بمأرب أو غرض أو شهوة ، فإن ذلك يكون من علامات شكرهم لله عز وجل على هذه النعمة ؛ وبالشكر تدوم النعم .

إن السنوات الثلاث قصيرة فى أعمار الأمم ، وهى تمضى كلمح بالبصر ، وسيفتح الله على السودان طريقاً جديداً يمضون فيه إلى الأمام ، فإذا عاهدوا الله من الآن على أنهم سيتوخون بذلك مرضاته، وإحياء سنن أسلاف هذه الأمة فى أخلاقهم وفضائلهم وأساليبهم ، فلا يبعد أن يكون ذلك بداية عهد جديد لا فى تاريخ السودان وحسب ، بل فى تاريخ إفريقيا كلها ؛ ومن يعش ير .

المؤتمر الاسلامى

ترتبط شعوب المسلمين بروابط شتى فى دينهم ودنياهم ، وكل فئة ترتبط ببعض الروابط لا بد لها من التناجى فيما تتعاون عليه من روابطها ، وما ينبغى لها أن تنظمه من أمورها .

وإن مؤتمر الشعوب الإسلامية الذى انعقد فى شهر مايو من العام الماضى فى عاصمة الدولة الإسلامية الشقيقة باكستان كانت النية معقودة قبل ذلك على أن يدعى رجاله إلى عقده فى القاهرة ، لكن الظروف السيئة التى وقعت على مصر فى بداية السنة الماضية ، لم تترك متسعاً أمامها لتحقيق ذلك الأمل فعدل القائمون بالمؤتمر إلى عقده فى كراتشى على ما يعلم القراء ، والمؤتمر شعبي يهدف إلى التعارف والتعاون على النهوض بمستوى المسلمين إلى الدرجة التى تليق بهم وتساعد حكوماتهم على المضى فى مهمتها ، وتسدد خطواتهم نحو حياة هنيئة طيبة تفيد الخير وتدافع عن الحق وتتعاون مع كل من يتعاون معها على ذلك . وإن الفرصة سانحة الآن أمام المسلمين ليصلحوا ما أفسده الدهر من كيانهم ، وليحيوا ما أماته الجهل من سننهم وفضائلهم ، وليسلحوا أبناء اليوم ورجال الغد بالثقافة النافعة التى تتلاءم مع أهدافهم ، ويكمل بها آخرهم ما بدأ به أولهم .



ولما كان العالم الإسلامى مترامى الأطراف ، وقد يفيض فى بعض أنحائه ماينقص أنحاءه الأخرى من نعم الله ومواهبه بحيث يكمل بعضه بعضاً ، فسيكون من أهم مايتناجى به رجال المؤتمر تعاون الأقطار الإسلامية بعضها مع بعض فى مادياتها ومعنوياتها عملا بالحكمة المأثورة : الناس بخير ما تعاونوا .

إن التعارف هو سبيل التعاون ، والتعاون هو سبيل الأحياء العاملين على تنظيم كيانهم ومعالجة ضعفه وتحرى القوة والعافية له بالمذاكرة والمشاورة والدرس والبحث والتفكير والتقرير ، وهذا ما ينتظر من المؤتمر الإسلامى المنوى عقده فى القاهرة هذا العام إن شاء الله ، وسيكون حديثنا عنه أوسع وأشمل عندما ندنو منه ؛ وكل آت قريب إن شاء الله .

مذبحة الدار البيضاء

وأخيراً أفلت زمام التعقل من يد الاستعمار الفرنسى فى شمال إفريقية ، فتعاونت الجالية الفرنسية فى الدار البيضاء مع الإقامة الفرنسية العامة على إحداث مذبحة فى تلك المدينة المراكشية فى أواخر الأسبوع الأول من ديسمبر وأوائل الأسبوع الثانى منه كانت فضيحة الفضائح للاستعمار حتى عند ذوى المسكانة من الفرنسيين فى باريس ، لأن عدد القتلى فى هذه المجزرة المخزية زاد على ألف قتيل ، ولو أن عشر هذا العدد من القتلى وقع لليهود أو للأرمن فى أى بلد من البلاد فى ظروف مثل هذه الظروف لقامت قيامة الأمم والدول إستنكاراً لهذه الفضيحة . أما عقلاء الفرنسيين فى باريس الذين

آلمهم أن يتلطخ اسم أمتهم بهذا الحادث ، فقد عقدوا اجتماعا عظيما فى (دار المثقفين الـكاثوليك) عندما بلغهم الخبر فى أول فبراير وحضر هذا الاجتماع مئات من الساسة والصحفيين وأساتذة الجامعات وطلابها . ورأس الاجتماع الـكاتب الفرنسى الشهير « مسيو فرانسوا مورياك » وخطب خطبة مسهبة طالب فيها بوجوب إعلان الفرنسيين لحقيقة هذه الفضيحة مهما كان ثمنها فادحا .

وخطب بعده « مسيو أندريه دوبيرتى » المستشار السابق للاتحاد الفرنسى فقال : « إنه لم يبق فى شمال إفريقيا نتيجة لسياسة فرنسا الغاشمة سوى الخوف والعنصرية والحقد » وقال : « إن أفراد الجالية الفرنسية فى شمال إفريقيا يعيشون الآن فى عزلة عن فرنسا التى أصبحت لا تهمهم فى شىء . ، كما أنهم يعيشون فى عزلة عن المغاربة أصحاب البلاد الذين لا يرون فيهم إلا أداة للاستغلال » .

وخطب « مسيو بيير كورفال » — وهو أيضاً مستشار سابق للاتحاد الفرنسى — فأفاض فى استنكار السياسة الفرنسية فى المغرب وشمال إفريقيا .

وتلاه « مسيو روبير بارا » سكرتير جمعية المثقفين الـكاثوليك فقدم للمجتمعين ملفاً يضم وثائق خطيرة لا تدع مجالا للشك فى أن الجالية الفرنسية هى التى دبرت مجزرة الدار البيضاء بالتعاون مع الإقامة الفرنسية . ثم ذكر كيف داهم الجيش الفرنسى المدجج بالسلاح دار نقابة العمال بمدينة الدار البيضاء ، وكيف تمت المأساة التى دبرها الفرنسيون فى حى العمال حينما هاجوه فى الساعة العاشرة ليلا وقال : إنهم استخدموا بعد ذلك فرقاً من رجال المطافىء لغسل الشوارع من الدماء الغزيرة التى خضبتها ، لطمس معالم الجريمة ...

وخطب الأب فيوم الذى عاش خمسة عشر عاماً فى المغرب كما خطب « مسيو شارل أندريه جوليان » أحد أساتذة جامعة السوربون ، « والمسيو فرانسوا ميتران » الوزير الفرنسى السابق ، وكلهم نددوا فى خطبهم بالاستعمار الفرنسى ومساوئه وأساليبه .

ثم قرروا فى نهاية الاجتماع تقديم طلب إلى الحـكومة الفرنسية يلحون فيه بضرورة فتح تحقيق نزيه عن حوادث الدار البيضاء الدامية . ولا ندرى ما يكون موقف البرلمان الفرنسى من هذه الفضائح . والعجيب أن تقف المفوضيات والقنصليات الأجنبية موقف المتفرج أمام هـذه الجرائم الإنسانية الفاضحة ...



أخبار متفرقة

● تعد الأعاصير التى هبت على أوروبا الشمالية الغربية أخيراً أعظم الـكوارث الطبيعية منذ خمسة قرون ؛ فقد انهارت السدود الصناعية التى أقيمت فى سواحل خمس دول أوروبية وفى مقدمتها هولندا وانجلترا الشرقية فاقتحمت لجج البحر الأراضى الواطئة التى عمرت وزرعت بحماية تلك السدود، وبانهيارها غرقت الموانىء والحقول ، وأودى الغرق بحياة الألوف وتشردت مئات الألوف من المنكوبين تعانى الفقر والفاقة والعرى والحرمان من مقومات الحياة .

● اجتاحت السيول والأمطار الغزيرة التى هطلت فى الشهر الماضى خيام اللاجئين الفلسطينيين فى أكثر المناطق اللبنانية والاردنية .

● تمت صفقة بيع تملك فيها دير اللاتين فى القسم العربى من القدس أرضاً واسعة قرر أن ينشىء عليها كنيسة كبيرة . ولهذا الدير الذى يستمد أمواله من دول أجنبية عدد من الـكنائس وممتلـكات كثيرة فى مدينة القدس .

● اجتمع المارشال تيتو لمدة ساعتين بسبعة من رجال الكنيسة الكاثوليكية في يوغوسلافيا وعلى رأسهم رئيس أساقفة بلغراد . والمعتقد أن المارشال يحاول تحسين العلاقات بين « الكنيسة » و « الدولة » على أثر قطع علاقاته مع الفاتيكان .

● أعلنت المنظمة الصهيونية الأميركية أنه يسرها أن تأخذ على عاتقها تنفيذ عملية هجرة يهودية ضخمة من دول شرق أوروبا الشيوعية إذا وافقت هذه الدول .

● أصدرت هيئة « الوحدة الأوروبية » في برلين وهي هيئة المانية وطنية تدعو الى وحدة المانيا — كتيباً باللغة الألمانية أهابت فيه بالشعب الألماني عامة وبأعضاء البرلمان بصفة خاصة أن يقاوموا التصديق على التعويضات لإسرائيل ، ودعت الجميع إلى تناسى خلافاتهم الحزبية لمقاومة استغلال إسرائيل للشعب الألماني الذي لا يزال يعاني آثار الحرب الماضية .

● من أسرار وزارة الخارجية الفرنسية أن وزيرها شومان كان قد زار البابا ورجاه أن يتدخل لدى دول أمريكا الجنوبية لكي تصوت لصالح فرنسا في قضايا الشمال الإفريقي في الدورة الأخيرة للامم المتحدة ؛ وذلك هو السر في تحول موقف هذه الدول من جانب الكتلة العربية الأسيوية إلى جانب الدول الاستعمارية .



● منحت إدارة الأمن المشترك الأمريكية فرنسا مبلغ ١٠٠ مليون دولار وبذلك يبلغ ماتسلمته فرنسا من هذه الإدارة منذ شهر يوليو ٢٠٠ مليون دولار .

● منحت الحكومة الفرنسية الجنرال فؤاد شهاب القائد الأعلى للجيش اللبناني والعقيد توفيق سالم رئيس أركان حرب الجيش اللبناني وسام « الليجيون دونور » من طبقتي قائد وضابط .

● وقعت تركيا مع شركة أمريكية إتفاقاً لإنشاء مصانع لتكرير البترول في تركيا تكلف أكثر من ٧ ملايين دولار .

● قامت في الجمهورية التركية في السنوات الأخيرة حركات إسلامية كان يقدر لها نجاح كبير غير أن هذه الحركات كبتت مؤخراً بشدة ويعتقد أن توسع النفوذ الأمريكي في تركيا سبب رئيسي في ذلك .

● اتفقت إيران مع شركات البترول الإيطالية على أن تورد لها البترول الإيراني الخام وتحصل في مقابله على آلات ميكانيكية وبضائع وسيارات وأقمشة حريرية وقطنية ومعدات السكك الحديدية والأدوات الكهربائية . وقد أعلن رسمياً أن الولايات المتحدة حذرت الحكومة الإيطالية من أنها ستفقد حقها في كل معونة أمريكية إذا باعت الزيت الإيراني الى دولة شيوعية .

● جاء في الكلمة التي ألقاها الرئيس محمد نجيب على ضريح الإمام الشهيد في يوم ذكراه : « لم تكن الفجيعة فيه فجيعة جماعة ولا فجيعة طائفة ولكنها كانت فجيعة أمة ، بل أمم غزا قلوبها وجمع على الأخوة أرواحها » . وفي معرض كلامه عن الجيل الذي رباه حسن البنا قال : « ولست أنسى ما حييت هذا الشباب المؤمن القوي في معارك فلسطين يقتحم على العدو أقوى الحصون ، ويسلك إلى قتاله أعصى السبل ، ويتربص بقواته وجحافله كل طريق ، ويحتمل في ذلك من المشاق والصعاب مالا يستطيع احتماله إلا من امتلأت نفسه بعظمة الأحد الخالد ووجد قلبه حلاوة الإيمان » .

● عاد رئيس تحرير « المسلمون » إلى كراتشي قادماً من أندونيسيا يوم ١٥ فبراير للانضمام إلى الوفد الصحفي الذي سافر من مصر ممثلا لأمهات دور الصحافة فيها بدعوة من الحكومة الباكستانية . .

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات هذا العدد

مطابع دار الكتاب العربي بمصر